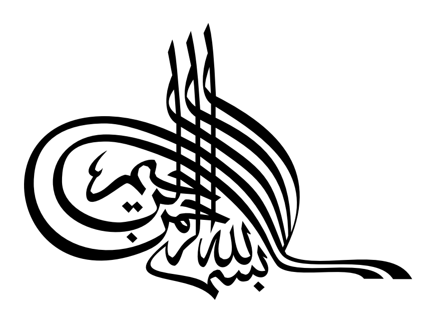
الـبـنـاء العقدي
للجيل الصاعد



البناء العقدي

للجيل الصاعد

أحمد بن يوسف السيد

البـنـاء العـقـدي
لـلـجـيـل الـصـاعـد

أحمد بن يوسف السيد

الطبعة الأولىٰ

١٤٤١هـ/٢٠٢٠م



Business Center 2 Queen
Caroline Street, Hammersmith
London W6 9Dx, UK

www.Takween-center.com
info@Takween-center.com

الموزع المعتمد

+966555744843

المملكة العربية السعودية - الدمام

عقيدة المسلم ليست نصوصًا تُحفَظ،

ولا أقوالًا يُجادَل بها، وإنما هي إيمان وخشوع

وإخبات، وعمل وفاعلية وحياة، ويقين وطمأنينة ورضا

المحتويات

الموضوع	الصفحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنه قد ارتبط في أذهان كثير من الطلاب أن العقيدة علم جامد، صعب، نظري بحت، لا يلامس الإيمان، ولا يُغذي الروح، وأنه مليء بأسماء الفرق والطوائف والخلافات التي إنما تهم المتخصصين أو طلاب العلم المتقدمين، بينما كانت العقيدة التي تلقاها الصحابة عن النبي ﷺ سهلة، واضحة، متينة، راسخة، عذبة، شفافة، وهي علىٰ سهولتها ووضوحها: فاعلة حيّة شمولية تملأ الروح وتغذيها، وتخاطب العقل وتُنمّيه، وتؤثر علىٰ السلوك والعمل ولا تبقىٰ حبيسة الأذهان، حتىٰ جعلَتْ نفوسهم كالجبال ثباتا، وكالشمس ضياء، وكالسهم سدادا.

وتشتد الحاجة -اليوم- إلىٰ تثبيت العقيدة الإسلامية الصافية الواضحة في نفوس الجيل الصاعد، وغرس قواعد الإسلام الكبرىٰ وأصوله في عقولهم وقلوبهم؛ لما لا يخفىٰ علىٰ أحد من واقع التحديات الهائلة التي تهدد إيمانهم وأفكارهم، والشبهات التي تنبعث لهم من كل مكان، والشهوات والفتن الداعية إلىٰ الانحلال والانحطاط.

ونحن إذا اعتنينا ببناء العلم الصحيح المبرهن -وخاصة أصول العقيدة- فإن هذا بحد ذاته يزاحم التصورات والأفكار الفاسدة ولو لم يتم الرد علىٰ جميع تفاصيلها، فإن الحق التام يُزهِق الباطل، والصواب يقضي علىٰ الخطأ، وإذا ثبتت عَظَمة الإسلام ومتانة عقيدته لدىٰ الشاب فإن من الصعب أن تؤثر عليه شبهة جزئية، أو أن تقضي علىٰ إيمانه فكرة باطلة، أو نزوة عابرة.

هذا؛ وقد كان من أجمل ما جمعني من مجالس العلم مع أحبتي -طلاب الجيل الصاعد-: دروس «البناء العقدي» والتي تناولتُ فيها مبادئ العقيدة الإسلامية، بطريقة سهلة واضحة مبرهنة، لتثبيت الإيمان، وتوضيح قواعده، ولبناء سور واقٍ من الشبهات والانحرافات الفكرية؛ وقد كان لها بفضل الله تعالىٰ أثر حسن وتفاعل مثمر[1].

---

(١) قام أحد الأساتذة الأفاضل بتدريس المادة لطلابه في الجامعة في مادة الثقافة الإسلامية، وأخبرني عن مدىٰ الاستفادة والأهمية التي لمسها، ويؤكد علىٰ أهميتها لعمر طلاب الجامعة. ومما علق في ذهني مما هو مرتبط بالمادة =

فعزمت علىٰ كتابة المادة وتحريرها وتنسيقها، وأضفت إليها موضوعات جديدة، وفوائد كثيرة، لم أطرحها في الدروس حتىٰ خرجت بهذا الشكل في هذا الكتاب الذي أسأل الله أن يجعله مباركا ونافعا، وأن يتقبله منّي.

وهذا الكتاب يأتي ضمن سلسلة كتب بنائية منهجية موجهة إلىٰ الجيل الصاعد: صدر منها كتابان، وهما: (إلىٰ الجيل الصاعد) و(التفكير الناقد للجيل الصاعد) والسلسلة مستمرة بإذن الله تعالىٰ، والمرجو أن تغطي احتياجا لدىٰ المراكز والحلقات والمعاهد المعتنية بفتيان الجيل الصاعد وفتياته.

مع التنبيه إلىٰ أن هذه المادة وإن كانت قد جُعلت ضمن سلسلة الجيل الصاعد إلاّ أنها تصلح لمن فوقهم كذلك، وأرجو ألا تحول هذه التسمية دون الاستفادة منها لمن تجاوزوا مرحلة الجيل الصاعد.

= أن فتيين عراقيين وهما: حذيفة وعز الدين، وهما من طلاب الجيل الصاعد المميزين -حفظهما الله وثبتهما وأحسن نباتهما- كانت والدتهما قد درّسَتْهُما المادة كاملة (عبر المقاطع المرئية) بعناية بالغة، فسألتُهما عن المادة وطلبت من أحدهما أن يقوم بعرضها وتلخيص بعض أفكارها -عمره ١٢ سنة- فوجدتُ استحضارًا وحُسن استفادة وتصورٍ لأبواب العقيدة بفضل الله تعالىٰ

هذا وقد قسمت الكتاب إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مقدمات عقدية منهجية مهمة.

القسم الثاني: أركان الإيمان وركائزه.

القسم الثالث: ما يضاد الإيمان ويناقضه.

وأسأل الله سبحانه أن يبارك في هذه المادة وينفع بها قارئها ومدرّسها وكاتبها إنه سميع قريب.

القسم الأول

مقدمات عقدية منهجية مهمة

أهمية العقيدة وقيمتها
وميزات عقيدتنا الإسلامية

معنىٰ العقيدة:

كلمة العقيدة في أساسها اللغوي تدل علىٰ معنىٰ الشد والتوثيق والعقد والإلزام، ولذلك قالوا فيها إنها الحكم الذي لا يَقبَل الشك فيه لدىٰ معتقده، وأن كل ما عقد الإنسان قلبه عليه فهو عقيدة.

وبناء علىٰ ذلك فيمكننا أن نُعرّف **العقيدة الإسلامية** بأنها: الإيمان الجازم المؤكّد -الذي لا يدخله الشك ولا الريب- بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وبكل ما أخبر الله ورسوله عنه من تحليل الحلال وتحريم الحرام وأمور الغيب وأصول الإسلام.

فالإيمان بالجنة والنار من العقيدة «وهو من الإيمان باليوم الآخر»

والإيمان بنبوة نوح ﷺ من العقيدة «وهو من الإيمان بالرسل»

والإيمان بأن جبريل نزل علىٰ محمد ﷺ بالوحي، من العقيدة أيضًا «وهو من الإيمان بالملائكة»

- **ما الذي يميز العقيدة الإسلامية عن بقية العقائد؟**

إذا كان لدىٰ اليهود والنصارىٰ وغيرهم عقيدة، فما الفرق بين عقائدهم وبين وبين عقيدة أهل الإسلام؟

ولماذا نحن أولىٰ بالحق والصواب منهم؟

هل لأننا ولدنا في بيئة مسلمة فحسب؟!

أم لأن لدينا من الدلائل والبراهين والحجج التي تثبت صحة عقيدتنا مما لا يمتلكونه هم لعقيدتهم؟

الجواب -وبلا شك ولا ريب- هو: لأننا نمتلك من الدلائل والبراهين والحجج التي تثبت صحة عقيدتنا مما لا يمتلكونه هم لعقيدتهم.

حسنًا .. فلنذكر -إذًا- شيئا من **الفروق التفصيلية** التي تبين تميّز عقيدتنا وصحتها علىٰ بقية العقائد.

■ **الفرق الأول: امتلاك الأدلة الواضحة علىٰ صحة (أصول العقيدة):**

إن الأدلة التي يستدل بها المسلمون لإثبات أن الإسلام صحيح لا تقارن أبدًا بالأدلة التي يستدل بها اليهود أو النصارىٰ علىٰ صحة أديانهم، وإن من أعظم ما يفتخر به المسلمون أنه بإمكانهم إثبات الدليل علىٰ صحة كل أصل من أصول اعتقادهم دون أن يستطيع الآخرون ذلك، فعلىٰ سبيل المثال:

نحن نعلم أن القرآن الكريم هو كتاب الإسلام، وأن الإنجيل هو كتاب النصارىٰ، وأن التوراة هي كتاب اليهود، فالذي يميز كتابنا (القرآن) عن سائر الكتب السماوية الأخرىٰ هو أن إثبات نسبته «كاملا بكل سوره وآياته» إلىٰ محمد ﷺ تم عن طريق التواتر المتصل، أي أنه نُقل ليس عن طريق واحد عن واحد عن واحد، بل عن جماعات كثيرة عن جماعات كثيرة عن مثلهم، بسند متصل إلىٰ النبي ﷺ.

بينما لا تمتلك الديانات الأخرىٰ هذه الوسيلة لإثبات نسبة كتبهم إلىٰ أنبيائهم، بل يوجد انقطاع كبير في الإسناد والاتصال، ومن أراد الاستزادة في هذا الباب فيمكنه الرجوع إلىٰ كتاب متخصص في مخطوطات كتب النصارىٰ وهو كتاب «استعادة النص الأصلي للعهد الجديد» للدكتور سامي عامري[1]، ويمكن

(١) الكتاب علمي متخصص يفيد من يمكنه قراءة الكتب العلمية المتقدمة وليس المبتدئ

كذلك متابعة الدكتور منقذ السقار الذي يذكر دائما في محاضراته الدلائل الكثيرة علىٰ عدم صحة كتب الأديان الأخرىٰ.

ثم بعد ذلك نحن نمتلك الأدلة الواضحة علىٰ أن القرآن لم يأت به النبي ﷺ من عنده، وإنما أتىٰ به من عند الله تعالىٰ بواسطة جبريل، وسيأتي التفصيل في ذلك في ثنايا هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

فهذا هو الفرق الأول وهو امتلاك الدلائل علىٰ صحة أصول الإسلام.

■ **الفرق الثاني: البرهان الذاتي «أي: مضمون القرآن ودلالته علىٰ صحة الإسلام» بعكس الكتب الأخرىٰ:**

كَتَب الدكتور محمد عبد الله دراز كتابًا في غاية الروعة والجمال، عنوانه (النبأ العظيم) وهدفه أن يشرح لماذا القرآن كلام الله وليس كلام البشر؟ وما الدليل علىٰ أنه لا يمكن أن يكون بشر قد أتىٰ به؟بطبيعة الحال قد ذكر أدلة كثيرة جدًا متعلقة بشخص النبي ﷺ، وأنه لا يمكن أن يكذب، وهو كلام جميل أدعوكم جميعا للرجوع إليه، ولكن الذي يعنينا في هذه النقطة أنه استدل علىٰ صحة القرآن من مضمونه، بغضّ النظر عن الدلائل الأخرىٰ التي تثبت صدق النبي ﷺ، ومما قال في ذلك: «هذا الكتاب الكريم يأبىٰ بطبيعته أن يكون من صنع البشر، وينادي بلسان حاله أنه رسالة القضاء والقدر، حتىٰ إنه لو وجد ملقًى في

صحراء لأيقن الناظر فيه أن ليس من هذه الأرض منبعه ومنبته، وإنما كان من أفق السماء مطلعه ومهبطه»[1]. ثم أخذ يفصّل الأدلة التي نستدل بها من بلاغة القرآن علىٰ أنه خارج قدرة البشر، وحين تقرأ له يقشعر جلدك من الدلائل والبينات والبراهين.

وإذا كان الدكتور دراز قد ركز علىٰ الجانب البلاغي، فإن دلالة القرآن من جهة مضمونه علىٰ أنه ربّاني المصدر كثيرة ليست منحصرة في الجانب البلاغي، بينما إذا اطّلعتَ علىٰ مضامين كتب الديانات الأخرىٰ فستجد أشياء غريبة مستنكرة تدل علىٰ أن هناك تحريفًا طال شيئا منها، مع العلم بأننا نؤمن أن الله أنزل التوراة علىٰ موسىٰ والإنجيل علىٰ عيسىٰ عليهما السلام ولكننا نعتقد كذلك بأنهما قد حُرّفا، والأدلة علىٰ تحريفهما كثيرة جدا، وقد استدل علماء المسلمين قديمًا علىٰ تحريف كتب اليهود والنصارىٰ من خلال دراسة النص نفسه وإثبات الإشكالات الموجودة فيه، سواء من جهة سوء الحديث عن الله تعالىٰ أو من جهة الطعن في أنبيائه وتشويههم أو من جهة الأخطاء التاريخية، وغير ذلك، ومن أبرز العلماء المتقدمين الذين تناولوا هذا الموضوع: الإمام ابن حزم رحمه الله تعالىٰ في كتابه (الفصل في الملل والأهواء والنحل) وقد كتب الشيخ رحمة الله الهندي كتابا كبيرا في ذلك سماه (إظهار الحق) وهو كنز كبير في الرد علىٰ النصارىٰ، وربما

---

(١) النبأ العظيم. ص١٠٦

لا يعلم الكثير من القراء أن الشيخ أحمد ديدات سلك طريقه في محاورة النصارىٰ بعد أن قرأ كتاب إظهار الحق للهندي عليه رحمة الله.

ومن الكتب المعاصرة في ذلك، كتاب: «هل العهد الجديد كلمة الله؟» للدكتور منقذ السقار.

مثال علىٰ التناقض: هناك موضعان في الكتاب المقدس -الذي يجمع التوراة والإنجيل- يتكلمان عن رجل واحد -واسمه (أَخَزْيَا)- بمعلومتين مختلفتين متناقضتين؛ الموضع الأول فيه: أن عمر هذا الرجل اثنتان وعشرون سنة»[(١)]، والموضع الثاني عن نفس الرجل وعلىٰ نفس الحدث، وفيه أن «عمره اثنتان وأربعون سنة»[(٢)] وهذا تناقض غير محتمل، ومن أشهر الأقوال عند النصارىٰ في حل هذه المشكلة هو أن الناسخ أخطأ وهو يكتب في أحد الموضعين، هكذا بكل بساطة! أنا لا أتحدث عن طبعة معينة فيها هذا الخطأ، وإنما في الأصل.

تخيل أن يحصل عندنا مثله في القرآن فنقول: الصحابة وهم يكتبون المصحف غلطوا في كتابة الآية الأولىٰ ولم يكتبوها بشكل صحيح! هل ستثق في القرآن؟!

---

(١) سفر الملوك الثاني(٨: ٢٦) «وَكَانَ أَخَزْيَا ابْنَ اثْنَتَيْنِ وَعِشْرِينَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ سَنَةً وَاحِدَةً فِي أُورُشَلِيمَ، وَاسْمُ أُمِّهِ عَثَلْيَا بِنْتُ عُمْرِي مَلِكِ إِسْرَائِيلَ»

(٢) سفر أخبار الأيام الثاني (٢٢: ٢) «كَانَ أَخَزْيَا ابْنَ اثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً حِينَ مَلَكَ، وَمَلَكَ سَنَةً وَاحِدَةً فِي أُورُشَلِيمَ، وَاسْمُ أُمِّهِ عَثَلْيَا بِنْتُ عُمْرِي».

■ **الفرق الثالث: وضوح العقيدة وموافقتها للعقل والفطرة:**

حين يؤمن النصراني بأن الله ثلاثة وواحد في نفس الوقت! فإن هذا أمر لا يمكن تصديقه إلا بإكراه العقل علىٰ قبول المستحيل! وحين يقول اليهودي إن الله واحد ولكن صفاته منافية للألوهية كما نجد في كتابهم أن الله تعالىٰ أخذ يبحث عن آدم عليه السلام بعد أن اختبأ في الجنة حين أكل من الشجرة!! وينادي عليه أين أنت يا آدم![1] - تعالىٰ الله عن ذلك- فإن هذا يدل كذلك علىٰ تحريف كتابهم.

ولكن .. حين تسأل عن صفات الله في القرآن فستجد الشفاء والعظمة والكمال، تجد الوضوح والبهاء والجمال، اقرأ معي:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾

وهذه من سمات العقيدة الإسلامية وخصائصها؛ أنها عقيدة واضحة فطرية تجعلك تعظم هذا الدين وتطمئن إليه، وقد ذكرتُ في كتابي (محاسن الإسلام) شيئا يخص هذا الموضوع، قلتُ فيه: «لا يوجد تراثٌ لأمةٍ من الأمم المتديّنة فيه تعظيمٌ للإله

(١) سِفْر التكوين (٣: ٩)

الخالق سبحانه وتنزيهٌ له عن النقائص وعمّا لا ينبغي أن يكون عليه، كما يوجد في القرآن الكريم وفيما صحّ عن النبي محمد ﷺ من الأحاديث.

ولذلك فإن **الإسلام قد تميَّزَ علىٰ سائر الديانات بوضوح العقيدة في (الإله)** من جهة الكمالات المتعلقة به، ولذا فإن العقل لا يجد تكلفًا في قبول الاعتقاد الإسلامي في الله سبحانه، بخلاف الخرافات والأساطير الموجودة في تصوّرات كثيرٍ من البشر تُجاه الإله، وهذه القضية من أظهر القضايا في دين الإسلام، والاستدلال عليها لا يحتاج إلىٰ كبير عناء، فالقرآن من أوله إلىٰ آخره تمجيدٌ وتعظيمٌ وتنزيهٌ لله ﷻ، والسورة التي أخبر النبيّ ﷺ أنها أعظمُ سورةٍ في القرآن هي السورة التي تبدأ بحمد الله والاعتراف بأنه رب العالمين، وأنه مالك يوم الدين، وتبيّن العلاقة بين المخلوق وبين الخالق بالتعظيم الذي ينبغي للخالق، بأنه لا يُعبد إلا هو، ولا يُستعان إلا به، فهذه أعظم سورة.

وكذلك أعظم آية في القرآن، كلُّها متعلقةٌ بالإله من أولها إلىٰ آخرها، وهي آية الكرسي، ولا يوجد عندَ أمّةٍ من الأمم المتديّنة تعظيمٌ للإله بمثل ما في آية الكرسي.

ثم إنه قد صح عن النبي ﷺ: أن في القرآن سورة تعدل ثلث القرآن، وهي سورة الإخلاص، وإذا تأمّلتَ فيها وجدت أن جميع السورة إنما هي تعظيمٌ وتنزيهٌ لله ﷻ.

بينما إذا نظرتَ فيما جاء عن الخالق في سائر الأديان فلن تحتاج إلىٰ كبير جهد لتدرك الفارق بين الإسلام وبين غيره، بل إن المقارنةَ بين الإسلام وغيره في هذا الباب ظالمةٌ» انتهىٰ[1].

وأما الإلحاد فهو أولىٰ بالخطأ والتناقض والإشكال ومناقضة الفطرة من الأديان الأخرىٰ، وهل يوجد عاقل يصدق أنّ عقله وُجد بدون خالق؟ فضلًا عن بقية أجزاء جسده، فضلا عن روحه ومشاعره، فضلا عن خلاياه وجيناته، فضلا عن بصمته وبنانه، فضلا عن بقية البشر والكائنات، فضلا عن السماوات والمجرات والنجوم ... الخ. فالإلحاد في الحقيقة ضرب من الجنون والانتحار العقلي.

---

(١) محاسن الإسلام (٣١-٣٢)

ما الفائدة المترتبة على وجود العقيدة الصحيحة الثابتة؟

هذا السؤال مهم جدًا، ولا بد أن نفهمه جيدًا حتىٰ ندرك نعمة الإسلام، وحتىٰ نفهم أن بأيدينا شيء عظيم فنحرص علىٰ الاستمساك به، وإذا كان هناك من يقرأ هذا الكلام من المشرفين التربويين أو المعلمين أو الآباء فليُدركوا جيدًا أن غرس محاسن العقيدة الإسلامية، وبيان محاسن الإسلام بشكل عام = من أهم ما يُمكن أن يُقدّم لهذا الجيل، وهو أولىٰ من المعلومات التفصيلية، فإذا اجتمع مع بيان المحاسن توضيح الأصول العقدية وتثبيتها فهنا نكون قد بنينا الأسوار الوقائية للجيل علىٰ خير ما يُمكن أن تُبنىٰ بإذنه تعالىٰ.

أولًا: سعادة العبودية لله:

إن أول شيء يُبدأ به في محاسن العقيدة الإسلامية أنها تجعل صاحبها يعيش سعادة العبودية لله تعالىٰ، فإن أجمل شيء

في هذا الوجود هو تذوق لذة التعبد لخالق كل شيء، وهذه اللذة لا تشبهها لذة أخرىٰ أبدًا، لا لذة المال ولا لذة المُلك ولا لذة الشهوات عموما، ولذلك قال من قال من عُبّاد المسلمين: (لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف) يقصد ما هم فيه من لذة التعرف علىٰ الله والتعبد له، كما قال ابن القيم: (فإنه لا نعيم له ولا لذة، ولا ابتهاج، ولا كمال، إلا بمعرفة الله ومحبته، والطمأنينة بذكره، والفرح والابتهاج بقربه، والشوق إلىٰ لقائه، فهذه جنته العاجلة، كما أنه لا نعيم له في الآخرة، ولا فوز إلا بجواره في دار النعيم في الجنة الآجلة، فله جنتان لا يدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولىٰ. وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة. وقال بعض العارفين: إنه ليمر بالقلب أوقات، أقول: إن كان أهل الجنة في مثل هذا، إنهم لفي عيش طيب. وقال بعض المحبين: مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قالوا: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله، والأنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه أو نحو هذا من الكلام، وكل من له قلب حي يشهد هذا ويعرفه ذوقا)[1].

---

(١) مدارج السالكين (٢٣٩-٤٠) ط: طيبة.

ثانيًا: الصبر علىٰ مصائب الدنيا وكوارثها ومصاعبها:

حين تكون حدود الإنسان ضيقة؛ كأن يكون كل هدفه في الحياة اكتساب المال أو البقاء مع حبيب، فإنه إذا أصيب بمصيبة متعلقة بالمال أو الحبيب فإنه سيفقد كل شيء، لأن حدوده متعلقة بأشياء محدودة صغيرة قريبة، فما الذي سيصبره؟ وما الأمل الباقي لديه؟

ولكن حين تكون حدوده عالية سماوية تتطلع إلىٰ عرش الرحمن ومصاحبة الرسول ﷺ في الجنة فإن تأثير المصائب الدنيوية عليه -مهما كان مؤلمًا- فسيبقىٰ محدودًا؛ لأنه لم يفقد كل شيء، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن: ١١] أي أن الذي يكون عنده إيمان وتوكل وعقيدة فإن الله يهدي قلبه للرضا حين تصيبه المصيبة.

ثالثًا: معرفة النفس والخالق والغاية:

أي أن يعرف الإنسان من هو؟ ومن خالقه؟ ولماذا هو موجود؟ وإلىٰ أين المصير؟

وهذه الأسئلة علىٰ أنها بديهية سهلة إلا أنها من أصعب الأسئلة علىٰ من لا يمتلك العقيدة، كالملحد مثلا .. فهو لا يدري من هو؟ نعم يعرف أنه إنسان وأن اسمه كذا، ولكن ما الذي يميز الإنسان؟ لماذا يختلف عن بقية الكائنات بالإرادة الحرة

وبالعقل؟ لماذا الإنسان يستطيع الاستفادة مما في الأرض والجو؟ لماذا الحيوانات مسخّرة له؟ لماذا ولماذا؟ لا يستطيع الجواب بأكثر من أن الإنسان مكون من مجموعة من الخلايا -لطخة كيميائية- موجود في طرف الكون في كوكب بئيس وهو جزء من الحيوانات ولكنه تطوّر عنها وصار أرقىٰ منها قليلا!

حسنا . . ولماذا هو موجود؟ وإلىٰ أين سينتهي؟ وما الذي ينتظره بعد الموت؟ كل هذا في ظل الإلحاد لا يمكن الجواب عنه ولا الاهتداء إلىٰ شيء يطمئن النفس فيه، بينما بالعقيدة تستطيع الجواب والاهتداء إلىٰ ما يطمئن الروح ويريح العقل ويُسكن النفس.

رابعًا: ضبط الأخلاق:

إن الإنسان الذي يؤمن إيمانا جازمًا بأن الله سيحاسبه علىٰ أقواله وأفعاله، وسيجازيه علىٰ نيته وقصده، فإنه سيضبط تصرفاته، ويحسب أعماله، ويعرف أين يضع خطواته، بينما يقل الوازع عند غير المؤمن فلا يحسب تصرفاته كثيرًا.

فإذا كان كثير من اللصوص والمجرمين يمارسون جرائمهم حتىٰ مع وجود القوانين في الدول القوية لأنهم قادرون علىٰ تجاوز القوانين بحيل كثيرة؛ فإن المؤمن الصادق يخاف الله أكثر من القانون، ويمتنع عن الظلم خشية من خالقه، ويُحسن إلىٰ الناس رغبة في التقرب إلىٰ ربّه ﷻ.

انظر وتلفّت حولك لترىٰ كيف يكون الإنسان طائشا مجرما سفّاكا حين يمتلك السلاح والقوة ولكن لا يمتلك الإيمان الصحيح. انظر إلىٰ آلة الحرب الغاشمة التي تسحق بنيرانها بيوت الضعفاء وتُشرّد الملايين، وتُيتّم الأطفال دون أدنىٰ ضمير.

ثم انظر إلىٰ من تعرفه من أهل الإيمان والصلاح والخشية، من المستنّين بسنة النبي ﷺ، والمستنيرين بنور هديه، المتبعين له، كيف تجدهم؟ كيف ترىٰ صدقهم وإحسانهم ونظافة أيديهم؟دعك ممن يدّعي الإيمان والصلاح ولا يكون في حقيقة أمره كذلك.

بل انظر إلىٰ نفسك، واسألها سؤالًا صادقًا: لو التزمت بهدي المصطفىٰ ﷺ، وأتيحت لي فرصة أن أنهب مالًا عظيما دون أن يراني أحد؛ فهل سأقوم بهذا النهب أم سأخاف الله؟أنت تعلم أن الجواب هو: ما دام أني متبع للنبي، مؤمن بربي، فلا يمكن أن أفعل ذلك.

حسنًا: والملحد؟! ما الذي سيمنعه؟

لو قلت: القانون فكثير منهم قادر علىٰ تجاوز القانون والاحتيال عليه.

ولو قلت: الخجل الاجتماعي فهو قادر علىٰ التستر والرياء.

ولو قلت: القيم الأخلاقية العامة فالسؤال هو: ما الذي يجعل هذه القِيَم صحيحة في نظره؟المجتمع؟ ما الذي يعطي المجتمع قيمة؟

وهكذا يفقد الملحد كل مرجعية لأنه قطع العلاقة بمن يُضفي علىٰ كل ذي لونٍ لونه، وعلىٰ كل حقيقة حقيقتَها ﷻ.

وتأمل معي: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾.

القسم الثاني

أركان الإيمان وركائزه وبراهينه

أركان العقيدة والإيمان

مقدمة

معالم الدين مكونة من ثلاث دوائر أساسية، وهي:

١- دائرة الإسلام.

٢- دائرة الإيمان.

٣- دائرة الإحسان.

وهذه الدوائر مستفادة من حديث النبي ﷺ في قصة جبريل المشهورة، وسأذكره ثم أذكر بعض الفوائد منه، ثم أبدأ بعد ذلك بأركان الإيمان مع ركائزها ودلائلها بإذنه تعالىٰ.

نصّ الحديث:

عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: «**بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ. حَتَّىٰ جَلَسَ**

إِلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَىٰ رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَىٰ فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا. قَالَ: صَدَقْت. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ! قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ. قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاَللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ. قَالَ: صَدَقْت. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ. قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّك تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاك. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ. قَالَ: مَا الْمَسْؤولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ. قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا؟ قَالَ: أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَىٰ الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ. ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثَ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ؟ قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ». أخرجه مُسْلِمٌ[1].

قال الإمام ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذا الحديث: (هو حديث عظيم جدًا يشتمل علىٰ شرح الدين كله ولهذا قال النبي ﷺ في آخره: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**»[2]. وهو حديث يبيّن أسس الإسلام وقواعده العظام بطريقة جميلة، وأسلوب حسن، وحَدَث مشوّق، وهذا يدل علىٰ عناية الإسلام بأسلوب الخِطاب،

---

(١) (٨)

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٩٧)

وطرائق التعليم، فقد كان بالإمكان أن تُعرَض المعلومات التي في الحديث بأسلوب خطابي عادي، ولكنه حصل بهذا المشهد وتلك القصة والحدث، ليَرْسَخ في الأذهان، ويثبت في العقول، ويستقر في القلوب.

الإيمان قول وعمل واعتقاد:

هذا الحديث يبيّن أركان الإيمان ومعالم الإسلام وصفة الإحسان، وقد تقرر في عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولكن قد أشكل علىٰ بعض الناس أن الإيمان المذكور في الحديث إنما رُبط بالاعتقاد وليس بالعمل، وذلك بقول النبي ﷺ: «**أن تؤمن بالله وملائكته . .**» بينما رُبِط الإسلام بالعمل، وذلك بقوله: «**تقيم الصلاة وتؤتي الزكاة . .**» فهل تدخل الأعمال في الإيمان؟ أم أن الإيمان مجرد اعتقاد؟

وللإجابة عن هذا الاستشكال فلا بد أولًا من النظر إلىٰ مجموع الأدلة القرآنية والنبوية وليس إلىٰ دليل واحد، وهذه من أهم المنهجيات لفهم الشريعة الإسلامية، فإذا نظرنا في أدلة الباب سيتبين لنا أن الأعمال داخلة في الإيمان، وأنه ليس اعتقادًا فقط، وهذه بعض الأدلة علىٰ ذلك:

١- قول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾

ﭐلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾. فـ (يقيمون الصلاة) عمل، والإنفاق عمل.

٢- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الإيمان بضع وستون شُعبة**[1]**، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذىٰ عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[2] فذكر منها إماطة الأذىٰ عن الطريق، وإماطةُ الأذىٰ: عمل وليست اعتقادا.

٣- حديث ابن عباس في قصة وفد عبد القيس -وقد أخرجه البخاري ومسلم- وفيه: أن النبي ﷺ أمرهم بالإيمان بالله وحده، قال: «**أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس**»[3] فعرّف الإيمان في هذا الحديث بأمور عملية مقاربة لما عرف به الإسلام في حديث جبريل.

إذًا، فالأدلة صريحة علىٰ أن العمل من الإيمان، فما توجيه الحديث الذي فيه قصة جبريل؟

الجواب: أنه إذا ذُكر الإسلام والإيمان في موضع واحد، فإن الإسلام يُفسَّر بالأعمال الظاهرة، والإيمان يُفسر بالاعتقاد، وذلك كما في حديث جبريل. وإذا ذُكر أحدهما منفردًا فإنه يشمل

---

(١) وفي رواية -بضع وسبعون شعبة-.

(٢) البخاري (٩) مسلم (٣٥)

(٣) البخاري (٥٣) ومسلم (١٧)

الاعتقاد والعمل، فإذا اجتمعا في موضع واحد افترقا من جهة المعنىٰ، وإذا افترقا في الموضع اجتمعا من جهة المعنىٰ، وهذا معنىٰ قول العلماء عن الإسلام والإيمان: (إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا).

علاقة الكتاب بحديث جبريل:

هذا؛ وإن حديث جبريل مليء بالفوائد والعبر، ولا يسع المقام في هذا الكتاب للتعليق عليها كلها، ولا علىٰ شرح دوائر الدين الثلاثة بالتفصيل، وإنما سأركز علىٰ الدائرة الثانية، وهي دائرة الإيمان مع التعرض لشيء مما له علاقة بالدوائر الأخرىٰ. ومن أراد الاستزادة من فوائد الحديث فليرجع إلىٰ كتاب جامع العلوم والحكم لابن رجب/ شرح الحديث الثاني. وللمتخصصين يمكنهم مراجعة كتاب (شرح حديث جبريل «الإيمان الأوسط») لابن تيمية رحمه الله تعالىٰ.

أركان الإيمان

الـركـن الأول
الإيمان بالله

الإيمان بالله تعالىٰ هو أصل الأصول، وما يليه من الأركان إنما هو فرع عن الإيمان به ﷻ، فهو الذي أخبرنا بالملائكة والرسل واليوم الآخر والقدر، فبدون الإيمان به لا يمكن الإيمان ببقية الأركان، ولذلك؛ فإن الحديث عن الله تعالىٰ سيكون أطول موضوع في الكتاب، وسأتناوله من عدة جهات:

١- وجود الله وكماله ﷻ وربوبيته وعظمته.

٢- أسماء الله وصفاته.

٣- ألوهيته ﷻ.

ثم ننتقل إلىٰ الحديث عن بقية الأركان بمشيئة الله تعالىٰ.

أولًا: وجود الله ﷻ وكماله وربوبيته:

إن المعرفة بوجود خالق للإنسان لا تتطلب استدلالا طويلا، ولا فلسفة معقدة، ولا طرائق مشتبكة، بل إن «إثبات وجود الله ﷻ أمر فطري عقلي قريبٌ لا يجهد العقل في الوصول إليه؛ إذ إنّه قائم علىٰ مبدأ يجده الإنسان مركوزًا في عقله بحيث لا يمكنه التخلي عنه البتة، وهو مبدأ: (**الاستدلال بالأثر علىٰ المؤثِّر**)، بل إن عامة الملحدين الذين يتنكرون لوجود الخالق سبحانه يُطبقون هذا المبدأ في سائر أمور حياتهم وإن أنكروه في باب الألوهية.

إن البحث فيما وراء الآثار والأفعال والأحداث عن المؤثّرين والفاعلين والمُحْدِثين لا يُمكن أن يتخلىٰ عنه البشر -مُطلقًا- إلا في حالة فقدانهم عقولهم، إذ لا يمكن للبشر أن يتصوروا حدوث الأشياء بعد عدمها دون وجود أسباب لذلك تناسب طبيعة تلك الحوادث»[1] والإنسان هو واحد من هذه الأشياء التي حدثت بعد أن لم يكن شيئا: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ فيستحيل وجوده دون خالق ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾، هذا إذا نظرنا لمجرد وجوده بعد العدم، فكيف إذا نظرنا إلىٰ إتقانه، وحسن قوامه، ودقيق صنعه، وعجيب تكوينه؟ فإنه (كلما كان الأمر الحادث الناشئ أكثر إتقانًا

(١) كامل الصورة، أحمد السيد (١٤)

وتعقيدًا اشتدت الضرورة في النفس للبحث عمّا وراء ذلك الأمر المُحدَث المتقَن من السبب الذي يناسب هذا الإتقان والتعقيد، فإن العقل لا يقنَع -عند النظر في الأمور الحادثة- بمجرد وجود سبب وراءها، بل لا بد أن يكون السبب مناسبًا للصفة التي نشأعليها هذا الأمر الحادث)(١).

فإذا تأمل الإنسان في نفسه فإنه لا يحتاج -عقلًا- إلىٰ دليل آخر علىٰ وجود الله تعالىٰ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] مع أن السماوات والأرض فيهما من الآيات ما هو أكبر وأعجب وأعظم من خلق الإنسان، كما قال الله ﷻ: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧] وإذا جمع الإنسان بين التأمل في آيات النفس والآفاق فإن هذا يزيده إيمانا ويقينًا: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣]

حين تفكّر في جهاز التخزين للمعلومات: (USB) فإنك تتعجب كيف استطاع الإنسان أن يصنع شيئا صغيرا يمكنه تخزين معلومات هائلة؟ وكلما زاد صغر الجهاز وسعة تخزينه فإن الإنسان يزداد تعجبًا ودهشة، ويزداد اعترافا لصانع الجهاز بالعلم والخبرة والإتقان ولو لم يعرف أسماء المصنّعين ولا الشركة المنتجة.

---

(١) كامل الصورة، أحمد السيد (١٤-١٥)

حسنا، هل تعلم أن في جسمك أجهزة تخزين معلومات هي أصغر بآلاف المرات من الـ (USB) وفي نفس الوقت تخزّن أضعاف أضعاف المعلومات التي تخزنها تلك الأجهزة التي من صُنع البشر؟!اقرأ في علم الأحياء عن الجينات وما تحويه داخلها وما يمكن تخزينه في (DNA) لتتعجب وتسبح بحمد الله وتشهد ألا إله إلا هو!

وإذا تأملنا في صناعة الرجل الآلي (الروبوت) فإننا نجد منها ما هو متطور جدًا، يحاكي حركات الإنسان، وكلما ازدادت المحاكاة أكثر كان هذا أدل علىٰ زيادة علم صانع الروبوت الذي لا يكون في العادة شخصا واحدًا وإنما علماء متعددون كم اختصاصات متنوعة.

حسنا، وماذا عن الإنسان نفسه؟! إذا كان هذا الرجل الآلي- يحاكي بعض حركات الإنسان ويحتاج لكل هذا الجهد والوقت ليخرج بهذه الصورة، فالإنسان نفسه يتطلب قدرة أعظم وعلما أكبر حتىٰ يمكن أن يوجد، ومن الجنون أن يقال إن المادة الجامدة أوجدته!

فوا عجبًا كيف يُعصىٰ الإله
أم كيف يجحده الجاحدُ؟
وفي كل شيء له آية
تدل علىٰ أنه الواحدُ

ولمن أراد الاستزادة في باب وجود الله وآياته في الإنسان والكون، فليطالع ما يلي:

- كتاب: براهين وجود الله للدكتور سامي عامري.

- وكتاب: الصنع المتقن لمصطفىٰ قديح.

- وكتاب: شموع النهار، لعبد الله العجيري.

- وكتاب: الله يتجلىٰ في عصر العلم، لمجموعة من المتخصصين الأمريكان في عدد من العلوم الطبيعية.

- وكتاب: الكوكب المميز لغييرمو غونزاليز وجاي ريتشاردز.

- وكتاب: ستة أرقام فقط، لمارتن ريس، وغيرها الكثير.

دلالة الفطرة علىٰ وجود الله:

وبعد ما سبق ذكره من دلالة العقل علىٰ وجود الله، فإن لدينا نوعًا آخر من الأدلة التي نستدل بها علىٰ وجوده ﷻ، ألا وهو: الفطرة؛ فالله تعالىٰ رَكَز في الإنسان معنىٰ الافتقار إليه، فهو ينشأ علىٰ هذه الفطرة، فطرة الشعور باعترافه بخالقه واحتياجه إليه، وقد ذكرتُ في كتابي سابغات شيئًا من دلالة الفطرة علىٰ وجود الله تعالىٰ، سأنقله هنا -مختصرًا-:

(تدل الفطرة البشرية علىٰ وجود الخالق ﷻ من ثلاث جهات:

الجهة الأولىٰ: أن هناك معارف أولية ضرورية حاصلة لكل البشر، لم يتعلموها في مدرسة، ولم يتلقّوها في جامعة، وإنما

وُلدت معهم، وغُرِزت في عقولهم؛ كمعرفة أن الحادث لا بد له من مُحدِث، وأنّ الجزء أصغر من الكل، وهذه المعارف يُستدل بها علىٰ وجود الله سبحانه من طريقين:

الطريق الأولىٰ: من جهة النظر والاستدلال، وذلك بأن يُنظَر في الكون والإنسان والمخلوقات، فيُعلَم بأنها حادثة، ثم نستدل بالمعرفة الفطرية القائلة بأن لكل حادث محدث علىٰ أن للكون والمخلوقات مُحدِثًا خالقًا وهو الله ﷻ.

الطريق الثانية: أن مُجرّد وجود هذه الغرائز المعرفية الفطرية يدلُّ علىٰ أن هناك من أودعها في نفس الإنسان؛ لأنها لم تحصل عن اكتساب ولا عن تعلم، وهذا دليل علىٰ وجود الخالق ﷻ.

الجهة الثانية من دلالة الفطرة: ضرورة الافتقار والتعبد، أو الاعتراف النفسي الضروري بالحاجة إلىٰ الخالق سبحانه؛ إذْ إنّ في فطرة الإنسان افتقار ذاتي إلىٰ قوة غيبية كاملة غنيّة يرجو منها الإنسان النفع، ويستدفع بها الضر، ويتذلل لها، وخاصّة عند الشدائد؛ ولذلك تجد أنّ الأمم كلّها من قديم الزمان وفي مختلف البلدان لها أماكن للعبادة، حتىٰ عبدوا الشمس والكواكب والنار والأحجار ملتمسين بذلك جلب النفع ودفع الضرّ، وما ذلك إلا لافتقار الإنسان بطبيعته إلىٰ الإله الذي يملأ تطلعات روحه وحاجاته؛ غير أنّ البيئة التي ينشأ فيها الإنسان قد تساهم في تشويش الغاية الصحيحة، فبدل أن يتوجه للإله الحق، يتوجه إلىٰ آلهة باطلة يُعلَم بالعقل قبل الشرع بُطلانها، ولذلك فإنَّ الرسل

حين بعثوا إلىٰ أقوامهم لم يكن محور رسالتهم إثبات وجود الخالق؛ لأن الأمم كانت تقرّ بذلك في الجملة، وإن كان بعض الناس قد يحتاج إلىٰ تذكير بهذه الحقيقة الفطرية، وإنما كان محور رسالتهم: الدعوة إلىٰ إفراد الله تعالىٰ بالعبادة، والتخلُّص من عبادة كلّ ما سواه، ولذلك نجد أسلوب خطاب الرسل عند الحديث عن هذه الحقيقة الفطريّة تذكيريًّا لا تأسيسيًّا، كأنه يُحيي الفطرة في النفوس، أو يوقظها، لا أنه يغرسها أو يَبْنِيْها، فتأمَّل ـ مثلًا ـ قول الله تعالىٰ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]؟! فهذا أسلوب مَن يُذكّر لا من يؤسس معنىً كان مجهولًا.

وقد ذكر ابن تيميّة رحمه الله تعالىٰ أن بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته فيحتاج إلىٰ نظر تحصل له به المعرفة(١).

الجهة الثالثة: الغرائز والأخلاق، وذلك أننا نرىٰ في الإنسان والحيوان غرائز فطرية غير مكتسبة من المجتمع ولا من البيئة، وإنما هي مما أودع فيه بغير كسب منه، فأنت تشاهد بعض الحيوانات عند ولادتها تتجه مباشرة إلىٰ الضّرع باحثة عن اللبن، من غير أن تكون الأم هي التي توجهها إليه، وأنت ترىٰ الرضيع إذا ألقمته أمه ثديها عرف كيف يمصه ويستخرج اللبن منه،

---

(١) مجموع الفتاوىٰ (١٦/ ١٨٩)

وكذلك غريزة ميل الجنسين أحدهما إلىٰ الآخر، وغريزة النكاح، وحب الولد، وغير ذلك من الغرائز الكثيرة جدًّا.

ومن الغرائز التي أودعت في الإنسان: القيم الأخلاقيّة الفاضلة كاستحسان الصدق، والعدل، واستبشاع الظلم والقتلِ وتعذيبِ الأطفال، ونحو ذلك. إنّ وجود الخير في نفس الإنسان لا يُمكن أن يفهم في دائرة العبثية والعشوائية، وإنّما يتمّ فهمه باتساق وانتظام تحت مظلّة الإيمان بوجود الخالق المُدبّر ﷻ، الذي خلق النفوس وألهمها فجورها وتقواها)[1]

وخلاصة الكلام في الإيمان بوجود الله وكماله أننا نستدل علىٰ ذلك بالعقل والفطرة، فالعقل يدلنا علىٰ ضرورة وجود خالق له صفات الكمال من خلال التفصيل السابق، والفطرة تدلنا علىٰ وجود الخالق أيضا من الجهات التي سبق بيانها كذلك؛ فاللهم ارزقنا تعظيمك وخشيتك وحسن العمل بالعلم يا رب العالمين .. آمين.

ثانيًا: أسماء الله وصفاته:

تقدم معنا أن الحديث عن الله ﷻ سيكون تحت ثلاثة عناوين:

١- وجود الله وكماله وربوبيته.

٢- أسماء الله وصفاته.

---

(١) سابغات (٧٠-٧٣) باختصار

٣- ألوهيته سبحانه وبحمده.

وقد تكلمنا عن العنوان الأول، وها نحن ننتقل إلىٰ العنوان الثاني لنتحدث عن أسماء الله وصفاته، وفي الحقيقة، فإن الحديث عن أسماء الله وصفاته يُعد داخلًا في الحديث عن كمال الله وعظمته، ولكنني أفردتها بعنوان خاص لأنني أريد الإشارة إلىٰ مسائل وتنبيهات متعلقة بالأسماء والصفات بشكل خاص فأفردتها.

معاني الأسماء الحسنىٰ:

إن الحديث عن أسماء الله وصفاته حديث عظيم جميل؛ لأنه يعرّفنا بالله ﷻ، وإن من المهم لشباب الجيل الصاعد أن يتعرفوا علىٰ معاني الأسماء الحسنىٰ، ويحفظوها، ويتأملوا فيها، ليتعبدوا الله تعالىٰ بها، فتزيدهم له حبا، ومنه قُربًا.

والله سبحانه أرشدنا إلىٰ أن ندعوه بها فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ ومن سُبُل إحسان الدعاء بها أن نعرف معانيها، وأن نعرف استعمالات الأنبياء لها، فالأنبياء إذا دعوا الله تعالىٰ فإنهم يدعونه بأسمائه وصفاته، وهم أعلم الناس بالله، وأعرفهم بطريقة استعمال الأسماء الحسنىٰ في الدعاء، فإذا أردنا أن ندعو الله دعاء نرجو إجابته فلنتعلم هدي الأنبياء في الدعاء ولنتأسّ بهم، فإن ذلك مظنة الإجابة.

ولقد كتب كثير من العلماء والدعاة في معاني الأسماء الحسنىٰ، ومن أسهل الكتب في ذلك مما يناسب الجيل الصاعد -وقد قررتُه علىٰ نخبة منهم فأعجبهم جدا-: كتاب لأنك الله، للأستاذ: علي الفيفي. ومن الكتب المفيدة: النهج الأسمىٰ في شرح أسماء الله الحسنىٰ، لمحمد النجدي.

حفظ الأسماء الحسنىٰ وإحصاؤها:

ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة**» والحديث صحيح أخرجه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما[1].

قال الإمام النووي رحمه الله في كتابه المنهاج -وهو شرح لصحيح الإمام مسلم-: (وأما قوله ﷺ: «**من أحصاها دخل الجنة**» فاختلفوا في المراد بإحصائها:

- فقال البخاري وغيره من المحققين: معناه: حفظها، وهذا هو الأظهر؛ لأنه جاء مفسرا في الرواية الأخرىٰ: «**من حفظها**».

- وقيل: أحصاها: عدها في الدعاء بها،

- وقيل: أطاقها، أي: أحسن المراعاة لها والمحافظة علىٰ ما تقتضيه وصدق بمعانيها..، وهو ضعيف، والصحيح الأول»[2].

(١) صحيح البخاري (٢٧٣٦) صحيح مسلم (٢٦٧٧)

(٢) المنهاج، النووي (١٧/ ٥-٦)

ومن العلماء من رجح معنىٰ العمل بمقتضاها بالإضافة إلىٰ حفظها. وعلىٰ أية حال فيُستحسن حفظ هذه الأسماء لما ورد من الفضل في الحديث المذكور.

تعيين الأسماء الحسنىٰ:

لم يصح عن النبي ﷺ عدّ الأسماء التسعة والتسعين، وإنما اجتهد العلماء في استخراجها، وأما ما ورد في بعض روايات الحديث عند الترمذي مِن عدّ الأسماء ونسبته إلىٰ النبي ﷺ فليس بصحيح، قال ابن تيمية رحمه الله: «تعيينها ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه»[(١)]

وتجدر الإشارة هنا إلىٰ أن أسماء الله تعالىٰ ليست محصورة في هذا العدد كما ذكر العلماء، وإنما هذا العدد من شأنه أن من أحصاه دخل الجنة، فقد ثبت أن النبي ﷺ حين يأتي يوم القيامة مستشفعًا إلىٰ ربه فإنه يحمد الله بمحامد لم يُفتَح فيها علىٰ أحد من قبله، قال الإمام النووي رحمه الله تعالىٰ (واتفق العلماء علىٰ أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى، فليس معناه: أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء، ولهذا جاء

(١) الفتاوىٰ ٦/ ٣٨٣

في الحديث الآخر: «**أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك**»[1].

الاختلاف بين المذاهب في تأويل الأسماء والصفات:

ها هنا ملاحظة في غاية الأهمية، ألا وهي أن الكلام في الأسماء والصفات قد أخذ منحىٰ جدليا عند كثير من الطوائف في التاريخ الإسلامي بتأثر من ثقافات وعلوم أخرىٰ خارجة عن الصفاء الإسلامي بعد أن تمت ترجمة الفلسفة والثقافة اليونانية علىٰ وقت المأمون -الخليفة العباسي-، فصار أول ما يقفز في الذهن إذا ذُكر باب الأسماء الحسنىٰ هو الخلافات العقدية الجدلية الواقعة في هذا الباب بين الطوائف الإسلامية، وهذا بلاشك خلاف المقصد الشرعي الذي لأجله ذكر الله أسماءه وصفاته في كتابه العزيز. ونحن إذا رجعنا إلىٰ وقت النبي ﷺ وأصحابه نرىٰ أنهم لم يتعاملوا مع الأسماء والصفات بغير مبدأ التعظيم والتسليم، ولم يضعوا قوانين معارضة للنصوص، سواء سُميت قوانين عقلية أو غير ذلك. وإنما تعاملوا مع هذه النصوص كما يتعاملون مع سائر نصوص القرآن الكريم الواردة في الأحكام والتشريعات والأخبار، فلم يكونوا يتكلفون في معانيها أشياء غير ما يدل عليه كلام العرب، ولم يقولوا إن نصوص الصفات الإلهية من المتشابه الذي لا يُفهَم، ولم يقولوا إننا نحتاج أن نأتي بمعان

(١) المنهاج، النووي، شرح الحديث رقم (٢٦٧٧)

خفية لنفسر بها ظاهر الآيات، وذلك أنهم يعلمون أن القرآن بيان للناس، وأنه جاء ليعرّفهم بخالقهم، وليس ليضع الألغاز والأحجيات في العقيدة ليأتي المتأخرون فيحاولون حلها.

ويقولون كذلك إن الرسول ﷺ جاء مبينا للقرآن، مفسرا له، شارحًا للناس ما يريده الله منهم، وهو في نفس الوقت حريص علىٰ المؤمنين، يريد هدايتهم وإرشادهم وتعليمهم، مع امتلاكه لأدوات البيان والقدرة علىٰ إيصال الحق، فلو كان يريد منّا أن نتعامل مع نصوص الأسماء والصفات بطريقة تأويلية خاصة لأرشدنا إلىٰ ذلك، خاصة وأن نصوص الصفات كثيرة جدا في القرآن الكريم.

فإذا جاء في القرآن -مثلا- قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾ فنحن نفهم من هذا النص ما فهمه الصحابة وبلغوه، وهو إثبات المحبة لله، وأنها محبة تليق بجلاله لأنه سبحانه لا يشبهه شيء، وهذا هو المعنىٰ العربي الواضح الموافق للشريعة.

بينما نجد أن بعض الفرق والطوائف وقفت من هذا النص وأمثاله موقفا متكلفا جدا، فقالوا: «المحبة؟! المحبة لا يمكن أن ننسبها إلىٰ الله كصفة، لأنها ميل القلب إلىٰ المحبوب، وهذا لا يليق بالله! فنؤولها إلىٰ غير ذلك» وتجدهم في نفس الوقت يثبتون لله صفة الإرادة! ويقولون: نُثبت إرادةً لا تشبه إرادة المخلوقين، ونحن نقول لهم: كذلك محبة الله لا تشبه محبة المخلوقين، فلا نقول فيها غير ما قال الله فيها بدلالة اللسان

العربي، فالله يحب التوابين، فمن كان توابا أحبه الله، والمحبة معروفة لا تحتاج إلىٰ تفسيرات متكلفة للتنفير من التصديق بها! وهكذا في بقية نصوص الأسماء والصفات، مع الاعتراف الدائم بأننا لا ندرك كيفية هذه الأسماء والصفات في حق الله تعالىٰ، لأن الله أعظم من أن يحيط أحد بحقيقة ذاته أو حقيقة أسمائه وصفاته، ومع الاعتراف الدائم بأن إثبات الصفات لله محكوم بقانون ذكره الله في القرآن وهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ فالله سبحانه يسمع ويبصر ويتكلم وله صفات الجلال، ولا يشبه شيئا من خلقه جل في علاه، وأما الذي لا يسمع ولا يبصر فهو إله المشركين وليس رب العالمين، ألم يقل إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾؟!

ثالثًا: الألوهية:

تقدم معنا أن الحديث عن الله سبحانه وتعالى يتضمن ثلاثة عناوين:

١- وجود الله وكماله وربوبيته.

٢- أسماء الله وصفاته.

٣- ألوهيته سبحانه وبحمده.

والمقصود بالألوهية هنا أي إفراد الله تعالىٰ بالتعبد، بألا يُعبَد إلا هو، ولا يُسجد إلا له، ولا يستغاث إلا به، ولا يُتوكّل إلا عليه، فإذا كان توحيد الربوبية هو إفراد الله تعالىٰ بالمُلك والخلق والتدبير؛ فإن توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالىٰ بالعبادة،

وهو متمحور حول كلمة (لا إله إلا الله) وهي أعظم كلمة في هذا الوجود، ومعناها أنه لا يوجد أحد يستحق العبادة إلا الله وحده.

والقرآن الكريم يُعزز معنىٰ توحيد الألوهية في النفس عبر التأكيد علىٰ توحيد الربوبية، أي أننا إذا اعترفنا أن الله هو الخالق وحده لا شريك له فهذا يستلزم إلىٰ أنه لا ينبغي أن يُعبد إلا هو، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ ونرىٰ في الآية تلازما بين الربوبية والعبودية.

ضرورة فهم معنىٰ التعبد في الإسلام:

إن العبادة في الإسلام ليست مجرد ركوع وسجود وإمساك عن الطعام، بل العبادة في حقيقتها محبة وذلّ وانقياد لله تعالىٰ، العبادة في حقيقتها: تسليمٌ للخالق، واستعداد لقبول واتباع كلما يأمر به، ومن جُملة ذلك: الصلاة والزكاة والصيام والحج. ولا شك أن هذه العبادات العملية عظيمة ومهمة، بل هذه الأمور المذكورة هي أركان الإسلام، ولكنها لا تُقبَل ولا تنفع إذا لم يصاحبها إخلاص قلبي لله تعالىٰ، فأصل العبادة الذي تنشأ عنه الأعمال الظاهرة هو الاعتراف القلبي والانقياد الباطني والتسليم لله تعالىٰ.

ومن أهم صور العبادة لله تعالىٰ: الحُب.

حُب الخالق العظيم، حُبّه لكماله وجلاله وجماله، وحُبّه لربوبيته وعظمته، وحُبّه لإنعامه علينا، وحبه لإرساله الرسل إلينا

وبيان الغاية من وجودنا، وكلما ازداد العبد محبة لربه، طاب قلبه به واستغنىٰ به عن غيره وذاق لذة الإيمان .. تلك اللذة التي لا تعدلها لذة.

وقد نقلْتُ في كتابي -محاسن الإسلام- تجربة للشيخ فريد الأنصاري ﷺ يحكي فيها عن هذه اللذة العجيبة التي وجدها حين فهم حقيقة التعبد لله، وقبلها ذكرتُ مقدمة في هذا المعنىٰ، وهذا نص الكلام[(١)]:

(إن للعبودية في الإسلام جمالًا يوقِف الإنسان علىٰ شاطئ الكون مندهشا بأنوار الحقائق الكبرىٰ التي تنفتح له، وإن عدم تذوق جمالية التعبد والخضوع والمحبة لله سبحانه لمن أكبر أسباب التأثر بالشبهات المثارة ضد وجوده وكماله سبحانه، ومِن ثم الوصول إلىٰ الإلحاد والإنكار.

وهاهنا تجربة فريدة في هذا المجال لعالِمٍ فريدٍ كاسمه، وهو الشيخ: فريد الأنصاري ﷺ في كتابه (جماليّة الدين) استعرض فيها مراحل فهمه للتدين والتعبد، وكيف أنها بدأت بالتصور المختصر، ثم انتقل إلىٰ إدراك بعض المفاهيم الحركية الإسلامية والدفاعِ عنها، ومع ذلك يقول إنّه لم يصل إلىٰ اللذة الحقيقة للإيمان حتىٰ أوقفه أحد مشايخه وأساتذته علىٰ حقيقة معنىٰ الإله والتألّه، يقول «بدأت المراجعة في حياتي كليّة،

---

(١) (٢١-٢٢)

واكتشفتُ حقيقة أن هناك شيئًا اسمه (حلاوة الإيمان)، ذوقًا لا تصورًا، وحقيقة لا تخيُّلًا! ثم بدأتُ أعود إلىٰ القرآن، فوجدتُ أني كنتُ بعيدًا جدًا عن بشاشته وجماله، وبدأتُ أعود إلىٰ السنة، فوجدتُ أني كنتُ أجهلَ الناسِ بأخلاق محمد عليه الصلاة والسلام، وبدأتُ أراجع ما قرأتُه عن العقيدة، فوجدتُ صفحات مشرقة مما كتب السلف الصالح قد مررتُ عليها مرور الأعمىٰ -لا مرور الكرام- بسبب ما غطّىٰ بصري من فهوم سابقة، حتىٰ كأني لم أقرأ قط!

قلت: لم تكن مفاجأتي علمية بقدر ما كانت وجدانية، لقد كنتُ أقرأ عبارات (المحبة والشوق والخوف والرجاء) ولكن دون أن أجد لها شيئًا من نبض الحياة بقلبي»[1].

لقد بيّن د. فريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كلامه بأنه لا يتّهم المفاهيم التي كان عليها سابقًا، وإنما يقول إن ظروف التلقي كانت سيئة للغاية، ولكيلا يكون الأمر غامضًا، فسأنقل لكم كلامه في شرح مفهوم الإله والتأله والتعبُّد، يقول:

«كلمة (إله) في أصل استعمالها اللُّغوي كلمة قلبية وجدانية، أعني أنها لفظ من الألفاظ الدالة علىٰ أحوال القلب، كالحب والبغض والفرح والحزن والأسىٰ والشوق والرغبة . . .الخ. أصلُها قول العرب: (أَلِه الفَصِيلُ يأْلَهُ أَلَهًا) إذا ناح شوقًا إلىٰ أمه.

(١) جمالية الدين، معارج القلب إلىٰ حياة الروح، لفريد الأنصاري (٤٠).

والفصيل: ابن الناقة إذا فُطِم وفُصِل عن الرضاعة، يُحبس في الخيمة وتُترك أمه في المرعىٰ حتىٰ إذا طال به الحال ذكر أمه وأخذه الشوق والحنين إليها وهو آنئذٍ حديث عهدٍ بالفطام، فناح وأرغىٰ رُغاءً أشبه ما يكون بالبكاء، فيقولون: (ألِه الفصيل)، فأمه إذن ههنا هي (إلهه) بالمعنىٰ اللُّغوي، أي: ما يشُوقُه. ومنه قول الشاعر: أَلِهتُ إليها والرَّكائِبُ وُقَّفٌ»[1].

ثم يقول: «وهكذا فأنت ترىٰ أن مدار المادتين (ألِهَ) و(وَلِه) هو علىٰ معانٍ قلبية ترجع في مجملها إلىٰ التعلّقِ الوجداني والامتلاءِ بالحب، فيكونُ قولُ المؤمن: (لا إله إلا الله) تعبيرًا عمّا يجده في قلبه من تعلّقٍ بربه تعالىٰ، أي لا محبوب إلّا الله، ولا مرهوب إلّا الله، ولا يملأ عليه عمارة قلبه إلّا قصدُ الله. إنه أشبه ما يكون بذلك الفصيل الصغير، الذي ناح شوقًا إلىٰ أمِّه إذْ أَحَسَّ بألم الفراق ووحشة البُعد، إنّ المسلم إذْ يشهد ألّا إله إلا الله، يُقرُّ شاهدًا علىٰ قلبه أنّه لا يتعلّق إلّا بالله، رغبةً ورهبة وشوقًا ومحبةً. وتلك لَعَمري شهادة عظيمة وخطيرة، لأنها إقرارٌ واعترافٌ بشعور، لا يدري أحدٌ مصداق ما فيه من الصدق إلا الله، ثم الشاهد نفسه. ومعاني القلب لا تُحدّ بعبارات، ولا تحصرها إشارات. ومن هنا كانت شهادة ألّا إله إلا الله من

---

(١) المرجع السابق (٣٤).

اللطافة بمكان، بحيث لا تُدرك علىٰ تمام حقيقتها إلا ذوقًا[1]») انتهىٰ النقل عن محاسن الإسلام.

والنظر إلىٰ العقيدة بهذا الاعتبار يجعلها حية فاعلة، تملأ القلب فتفيض علىٰ الجوارح، تجعل الإنسان يستقيم في أفعاله وأقواله، فهو معظّم للرب مستسلم له ممتلئ ذلا ومحبة له، ثم هو مع ذلك ملتزم بالأعمال التي شرعها الله علىٰ عباده، من الصلاة والزكاة ورحمة الناس والإحسان إلىٰ الفقراء وبر الوالدين والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هكذا تكون العقيدة حية فاعلة، شاملة لشؤون الحياة، غير محبوسة في جدران المسجد فإذا خرج المصلي منه نزع قيمه ومبادئه!

من ثمرات التوحيد: التعلق بالله وحده وعدم التعلق بالخرافات:

إذا آمن الإنسان بأن الله هو الخالق المالك المدبر، المتصف بكل صفات العزة والكمال والعظمة، ثم آمن به إلهًا واحدًا لا يستحق العبادة إلا هو فإن هذا يدفعه إلىٰ عدم التعلق بالبشر، سواء أكانوا أحياء أم أمواتا، فالله ﷻ هو القادر علىٰ إغاثة الملهوف وإجابة سؤل السائلين، فالتوجه بالدعاء لغير الله ﷻ إنما هو ضعف في الاعتراف بقدرة الله ورحمته وقربه من عباده، والذين يُدعَون من دونه إنما هم عباد أمثالنا لا يملكون النفع ولا الضر، وبذلك نعلم حجم الظلم الذي يقع

(١) المرجع السابق (٣٥، ٣٦).

فيه من تنزل بهم الكربات والشدائد ثم يتوجهون للأموات في قضائها بدلًا من أن يتوجهوا لله في رفعها -منادين بأسمائهم مستغيثين بهم قائلين: يا حسين! يا علي! يا عبد القادر! الخ.

وهل الله تعالىٰ لا يسمع الإنسان؟ وهل جعل الله لأحد من عباده صلاحية سماع كل ما في الكون والقدرة علىٰ إجابة كل السائلين؟! سبحان الله وتعالىٰ عما يصف الواصفون.

ويُستثنىٰ من ذلك ما لو استغاث الإنسان أو استعان بإنسان حي قادر يسمع الصوت ويكون مستطيعا لفعل شيء، وذلك ضمن دائرة الأسباب المعروفة كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥] استغاثه: طلب أن يغيثه. لماذا؟ لأنه موجود في نفس المكان، وهو قادر علىٰ إغاثته فلا مانع حينئذ من طلب السبب منه.

ومن علامات ضعف العقيدة والإيمان في القلب: التعلق في جلب النفع ودفع الضر بأشياء لم يجعلها الله تعالىٰ أسبابًا لذلك، مثل تعليق مجسمات عليها صورة عين في البيوت والمحلات التجارية لدفع العين، أو تعليق التمائم (مثل القلادة) علىٰ الرقبة للحماية والوقاية، وهذا من الشرك -إلا إذا كانت من القرآن ففيها خلاف والأفضل اجتنابها-. وقد أخرج الإمام أحمد في مسنده[١] عن عقبة بن عامر الجهني ﵁ أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط،

---

(١) (١٧٤٢٢)

فبايع تسعة، وأمسك عن واحد، فقالوا: يا رسول الله، بايعت تسعة، وتركت هذا؟ قال: «**إن عليه تميمة**». فأدخل يده، فقطعها، فبايعه، وقال: «**من علق تميمة فقد أشرك**».

ومن علامات ضعف العقيدة والإيمان في القلب: الحلف بغير الله تعالىٰ، فإن هذا منافٍ لتمام التعظيم لله تعالىٰ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**ألاَ من كان حالفا فلا يحلف إلا بالله**». فكانت قريش تحلف بآبائها، فقال: «**لا تحلفوا بآبائكم**»[1]. فهذا كلامٌ واضح صريح من النبي ﷺ في أنه لا يجوز للمسلم أن يحلف إلا بالله تعالىٰ وحده. فلا يجوز الحلف بالشرف أو العرض أو الحياة أو السيف أو العَلَم أو الأمانة أو النبي والصالحين.

---

(١) صحيح مسلم (٣٨٣٦)

الركن الثاني من أركان الإيمان
الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان، وهو من جملة الإيمان بالغيب؛ لأن الإيمان بالغيب يدخل فيه كل ما يغيب عن الإنسان رؤيته، ومن ذلك (الملائكة).

وقد امتدح الله تعالىٰ المؤمنين بالغيب فقال: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾. والإيمان بالغيب مبني علىٰ مقدمات وأدلة قطعية تقول: إن الله تعالىٰ هو خالق السماوات والأرض، وهو يعلم الأشياء التي خلقها مما غاب عنا رؤيته ومشاهدته، ولذلك أخبر سبحانه عن نفسه بأنه ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ثم أخبرنا عن طريق رُسُله بأمور من الغيب الذي غاب عنه ملاحظته بالحس، واستأثر بأمور من الغيب لم يُخبر بها أحدًا، مثل موعد قيام الساعة.

فإذن: نحن نؤمن بالملائكة لأننا آمنا بالله ﷻ، وقد أخذنا سابقًا الأدلة التي تثبت لنا وجود الله وعظمته، وسيأتينا أيضًا فيما يلي: «الأدلة والبراهين علىٰ صدق النبي ﷺ وأنه رسول من عند الله» حتىٰ نعلم أن ما يخبرنا به فإنه حق. هكذا تكون معرفتك ناضجة ومُرتبة ومنهجية.

من هم الملائكة وما صفاتهم؟

هم خلق من خلق الله وجُند من جنوده، كثير عددهم، لا يحصيهم إلا هو سبحانه، مخلوقون من نور، لهم وظائف كثيرة كلفهم الله بها، وهم يسبحون بالليل والنهار ويواصلون التعبد بلا فتور.

قال جل جلاله: ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَنۡ عِندَهُۥ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسۡتَحۡسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠] وقال ﷻ: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وقال ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧]

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ قال: «**خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[1]

(١) (٢٩٩٦)

● من صفاتهم الخلقية:

١- أنهم مخلوقون من نور -كما تقدم-

٢- أن لهم أجنحة متفاوتة العدد، فمنهم من له جناحان ومنهم أكثر من ذلك، قال الله ﷻ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقال قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إن النبي ﷺ رأىٰ جبريل عليه السلام له ستمائة جناح[(١)]

٣- أنهم لا يأكلون ولا يشربون، كما في قصة مجيء الملائكة إلىٰ نبي الله إبراهيم عليه السلام، وفيها: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾.

● ما وظائف الملائكة؟

الملائكة لهم وظائف كثيرة جدًا، وتربطهم بالمؤمنين من البشر علاقة محبة واهتمام، فمن وظائفهم:

١- الاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم، كما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾.

---

(١) صحيح البخاري (٤٨٥٧)

٢- ومنهم ملائكة يتتبعون مجالس الذكر ويحضرونها ويتزاحمون عليها ويتنادون، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن لله تبارك وتعالىٰ ملائكة سيارة فضلا يتتبعون مجالس الذكر فإذا وجدوا مجلسا فيه ذكر قعدوا معهم، وحفّ بعضهم بعضا بأجنحتهم حتىٰ يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا**»[١].

٣- ومنهم ملائكة يحضرون صلاة المسلمين ويشهدونها فيؤمّنون مع الإمام ويستمعون القرآن ويُسجلون الداخلين إلىٰ الجُمعة، فقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا﴾ أي بالملائكة. وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إذا أمن الإمام فأمنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**»[٢] وثبتت عنه أحاديث أخرىٰ في شهود الملائكة لصلاة المؤمنين لا نطيل المقام بذكرها.

٤- ومن وظائف الملائكة: نُصرة المؤمنين وتأييدهم، فالرسول ﷺ حين أغضبه قومه، وانطلق وهو مهموم علىٰ وجهه من مكة حتىٰ وصل إلىٰ منطقة قرن الثعالب؛ أتاه جبريل ﷷ وقال: «إن الله ﷻ قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم»[٣] وقد قال الله

---

(١) صحيح مسلم (٢٦٨٩)

(٢) البخاري (٧٨٠)، ومسلم (٤١٠). من حديث أبي هريرة ﭬ.

(٣) البخاري (٣٢٣١)

تعالىٰ في سورة المدثر بعد أن ذكر الملائكة ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] ومن هؤلاء الجنود من أنزلهم الله في نصرة المؤمنين في معركة بدر، حيث قال سبحانه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

٥- ومن الملائكة من هو موكل بإنزال الوحي من الله إلىٰ أنبيائه، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧] وقال تعالىٰ: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾

٦- ومنهم الموكلون بقبض الأرواح عند حلول آجالها، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١]. وقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ [الأنفال: ٥٠].

٧- ومن أهم أعمال الملائكة: كتابة ما يعمله البشر من أعمال وأقوال وتسجيلها في صحف وكُتب لتكون شاهدا علىٰ الإنسان يوم القيامة كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ١٢] وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ

يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

٨- ومن الوظائف الشريفة لبعض الملائكة: حمل عرش الرحمن ذي العزة والجلال: كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غَافِر: ٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾

٩- ونختم بعمل من أكثر الأعمال إسعادًا للمؤمنين، ألا وهو تبشيرهم عند الموت برحمة الله وجنته، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠] لا تخافوا: أي مما تقدمون عليه بعد مماتكم. ولا تحزنوا: علىٰ ما فاتكم من وراءكم.

ولله ما أجمل تلك اللحظة وأسعدها .. تخيل أنك في تلك اللحظة الرهيبة المرعبة: لحظة الموت، وأهلك من حولك يبكون، ولا أحد ممن حولك يفهمك أو يستطيع أن يقدم لك المساعدة؛ في هذه اللحظة تتنزل الملائكة، إما بالبشرىٰ وإما بالعذاب، فتقول للعبد المؤمن المستقيم: لا تخف، ولا تحزن -وليس ذلك فقط- بل وتبشره بالجنة أيضًا: ﴿وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠]. فأي راحة وأي سعادة تتغشىٰ العبد المؤمن في تلك اللحظة؟!

الركن الثالث من أركان الإيمان
الإيمان بالكتب

من شمولية الإسلام وخصائصه وتميزه علىٰ ما سواه: أنه يجعلك تصطلح مع كل رسل الله وكتبه وليس كبقية الأديان، بل إن الإسلام يخبرك بأنك إن لم تؤمن بالأنبياء الذين بُعثوا لأهل الكتاب -اليهود والنصارىٰ- فإنك لا تكون مسلمًا.

قارِن هذا بضيق الأفق الذي تجده عند أهل الكتاب الذين يفرقون بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض، يؤمنون بموسىٰ وعيسىٰ ويكفرون بمحمد ﷺ، يؤمن بعضهم بالتوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن، ويؤمن آخرون بالتوراة والإنجيل ويكفرون بالقرآن، بينما نحن نؤمن بموسىٰ وعيسىٰ ومحمد وسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ونؤمن بالتوراة والإنجيل والقرآن -وإن كنا نعتقد أن التوراة والإنجيل الموجودَين اليوم قد تم تحريفهما-.

وقد عبّر أحد العائدين إلىٰ الإسلام من النصرانية بتعبير جميل واصفًا هذه الحالة الشمولية في الإسلام بقوله: (ربحت محمدًا ولم أخسر المسيح) وجعلها عنوانًا لكتاب ألفه في ذلك، أي أنه حين أسلم فإنه لم يخسر حبه ولا تعظيمه للمسيح عليه السلام لأنه في نظر الإسلام نبي من أفضل الأنبياء، وفي نفس الوقت ربح الإيمان بمحمد ﷺ، الذي جاء مُصدّقًا لما بين يديه من الكتب والرسل ومنهم عيسىٰ عليه السلام.

كيفية الإيمان بالكتب:

الإيمان بالكتب يكون عبر مقامين اثنين:

الأول: التصديق المجمل.

الثاني: التصديق المفصّل.

فأما التصديق المجمل فهو الإيمان بأن الله أنزل كُتبا علىٰ رسله وأنبيائه، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾. وأما المفصّل، فهو: التصديق بتفاصيل ما أخبر الله به عنها في القرآن من أسمائها وما يتعلق بها من حفظ أو تحريف ونحو ذلك، فالله أخبرنا أنه أنزل التوراة علىٰ موسىٰ والزبور علىٰ داود والإنجيل علىٰ عيسىٰ عليهم السلام وأخبرنا عن صُحف نبي الله إبراهيم، فيجب علينا الإيمان بكل ذلك.

وأخبرنا كذلك بتحريف أهل الكتاب للكتاب، كما قال ﷻ ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ولكن هذا لا يعني أنه لم يبق فيه شيء صحيح، بل هناك أمور باقية من الوحي الإلهي لا تزال محفوظة، ومن الأمثلة علىٰ ذلك: ما جاء في سورة الأنبياء قوله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] ونحن نعلم أن الزبور أُنزل علىٰ داود عليه السلام، وإذا راجعنا سِفر المزامير في «الكتاب المقدس» وهو السِفر المتعلق بداود عليه السلام سنجد هذا النص مكتوبًا: «الصديقون منا يرثون الأرض ويسكنونها إلىٰ الأبد»[(١)] وأنت ترىٰ أن هذا يتوافق مع ما أخبر القرآن أنه مكتوب في الكتب السابقة، هذا بالإضافة إلىٰ النصوص الموجودة لديهم والتي تتحدث عن النبي ﷺ وتبشر به، ويمكن مراجعة (هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟) للدكتور منقذ السقار في هذا الموضوع لتقف علىٰ النصوص الموجودة في الكتاب المقدس المتعلقة بهذا المعنىٰ.

القرآن: خاتمة الكتب الإلهية للبشر والمعجزة الكُبرىٰ:

أما القرآن الكريم -وهو آخر كتاب أنزله الله تعالىٰ ولا كتاب بعده- فهو الكتاب العظيم المحفوظ من التحريف

---

(١) سفر المزامير (٣٧: ٢٩)

والنقص، ومن عظمته أن الله ﷻ وصفه بقوله: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [الحشر: ٢١]. وقال الله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١] والجواب في الآية محذوف تقديره: «لكان هذا القرآن»، فتقدير الآية: ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ﴾ = (لكان هذا القرآن) ولك أن تتخيل العظمة بعد ذلك. وجاء الحذف هنا لتظهر عظمته، كقول القائل مثلا: (لو رأيتَ فلانًا وهو يخطب) دون أن يُكمل الجواب -أي دون أن يقول: لرأيت خطيبا بارعا- فالذي سيأتي في بال السامع أنه خطيب بارع ومؤثر، وهو أبلغ من قوله (لو رأيت فلانًا وهو يخطب لرأيت خطيبًا بارعًا) فهذا سيقلل فخامة الجملة وشأنها.

إعجاز القرآن:

إن من أعلىٰ جوانب عظمة القران: إعجازه؛ وذلك أن النبي ﷺ لما نزل عليه القران، وكذبه قومه، أتاهم بآية قاهرة، ومعجزة بيّنة من عند الله ﷻ، وهي متعلقة بهذا القرآن، وذلك أنه تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القرآن بل بسورة منه! وحتىٰ تتصور عظمة هذا التحدي فاستحضر المعطيات التالية:

- **نوع الخصوم**: عرب أقحاح، بضاعتُهم البيان، وميدانهم اللغة والفصاحة.

- **عددهم**: لا يُحصىٰ لأن التحدي كان عاما لهم ولأنصارهم بل وحتىٰ للجن الذين معهم.

- **صيغة التحدي**: قوية واضحة مستفزة للطرف الآخر، فلو كان قادرًا فلا يمكنه ألا يجيب.

- **الإغراء**: لو استطعتم الإتيان بسورة مثل القرآن ينتهي الإسلام وتنتصرون أنتم.

- **المحفزات**: لا تحتاجون إلىٰ قتال ولا إلىٰ سفك دماء ولا إجراء معارك وحروب، فقط تكلموا بألسنتكم وائتوا بمثل هذا القرآن.

- **ومما يزيد التحدي استفزازًا لهم**: إخبارهم بأنهم لن يستطيعوا -البتة- أن يكسبوا هذا التحدي، وأن من الخير لهم أن يتقوا النار عوضًا عن ذلك.

- **النتيجة**: عجْزُ العرب، وانتصار القرآن، وشموخ الإسلام.

قال الله تعالىٰ ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ

﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤] وكتب الدكتور محمد دراز رحمه الله معلقًا علىٰ الآية: «فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز: لقد أجهز عليهم بالحكم الباتِّ المؤبَّد في قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُواْ﴾، ثم هددهم بالنار، ثم سوَّاهم بالأحجار، فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداءُ الألِدَّاء، وأباةُ الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم. ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلىٰ معارضته، ولا سُلَّمًا يصعدون به إلىٰ مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طَوْد شامخ، فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا، حتىٰ إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف، وتلك حيلة يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا بالقلم واللسان.

ومضىٰ عصر القرآن والتحدي قائم ليجرِّبَ كل امرئ نفسه، وجاء العصر الذي بعده وفىٰ البادية وأطرافها أقوامٌ لم تختلط أنسابهم، ولم تنحرف ألسنتهم، ولم تتغير سليقتهم، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا هذا الدين من أساسه، ويثبتوا أنهم قادرون من أمر القرآن علىٰ ما عجز عنه أوائلهم؛ لفعلوا، ولكنهم ذلت أعناقهم له خاضعين، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فُعِل بأشياعهم من قبل. ثم مضت تلك القرون، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد كانوا أشد عجزًا، وأقل طمعًا في هذا المطلب العزيز فكانت شهادتهم علىٰ

أنفسهم مضافة إلىٰ شهادة التاريخ علىٰ أسلافهم، . . ، ولا يزال هذا دأب الناس والقرآن حتىٰ يرث الله الأرض ومن عليها»[1].

إن هذا النوع من العظمة جعل علماء المسلمين يتساءلون: مالذي أعجز العرب في هذا القران؟!فنتج عن بحثهم في الجواب عن ذلك: علمٌ ضخم فخم من علوم المسلمين اسمه: (علم إعجاز القرآن) وهو علم يبحث في ثبوت إعجاز القرآن وبيان وجه إعجازه. وقد تحدثتُ عنه في محاضرة مطوّلة علىٰ موقع «يوتيوب» بعنوان: إعجاز القرآن عند المتقدمين، شرحتُ فيه تفاصيل هذا العلم وموضوعاته وأهم كتبه.

هذا، وإنّ من أهم ما أُلف في هذا الباب: كتاب بيان إعجاز القرآن للخطابي، وكتاب إعجاز القرآن الكريم للباقلاني، وكتاب دلائل الإعجاز للجرجاني، وكتاب النبأ العظيم لمحمد عبد الله دراز.

ولعل من المناسب أن أختم الحديث عن إعجاز القرآن الكريم بما ختم به الإمام الخطابي كتابه (بيان إعجاز القرآن) متحدثا عن أثر القرآن علىٰ النفوس وعظمته في التغوّل لأعماق الروح، قائلًا: (قلتُ في إعجاز القرآن وجهًا آخر، ذهب عنه الناس، فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم؛ وذلك: أَخْذُه بالقلوب، وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن،

---

(١) النبأ العظيم، محمد دراز، طبعة دار طيبة (ص ١٠٥- ١٠٦).

منظومًا ولا منثورًا، إذا قرع السمع خلص له إلىٰ القلب من اللّذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرىٰ، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتىٰ إذا أخذت حظها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتغشاها الخوف والفرق، تقشعر منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يحول بين النفس وبين مضمراتها وعقائدها الراسخة فيها . . فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفتاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحولوا عن رأيهم الأول، وأن يركنوا إلىٰ مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانًا . . .بعث الملأ من قريش عتبة بن ربيعة إلىٰ رسول الله ﷺ ليوافقوه علىٰ أمور أرسلوه بها، فقرأ عليهم آيات من حم السجدة، فلما أقبل عتبة وأبصره الملأ من قريش، قالوا أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به)[1].

---

(١) الخطابي، بيان إعجاز القرآن: ٧٠

الركن الرابع من أركان الإيمان
الإيمان بالرسل

كما سبق في الإيمان بالكتب مِن أن الإسلام يجعلك في حالة تصالح مع كُتب الله، فإنه يجعلك كذلك تجاه الأنبياء والمرسلين، فنحن نؤمن بكل الرسل الذين قص الله علينا خبرهم في القرآن، فما أخبرَنا به مفصّلًا آمنّا به مفصّلًا، وما أخبرنا به مُجملًا آمنّا به مجملًا. فالإيمان المفصّل يتعلق بأسمائهم وصفاتهم وكُتبهم وأخبارهم -كل ذلك يجب الإيمان به كما أخبر الله ورسوله- والإيمان المجمل، مفاده: أن هناك رسلًا أرسلهم الله وإن كنا لا نعلم عنهم شيئا، ولكننا نصدق بوجودهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨]. وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وفي هذه الآية الرد علىٰ من يزعم أن وجود الأنبياء انحصر فيما يُعرف بمنطقة الشرق الأوسط، فهي خبر صادق بوجود الأنبياء في كل الأمم.

دين الأنبياء واحد وشرائعهم مختلفة:

- يخبرنا القرآن بأنَّ الأنبياء كلهم كانوا مسلمين لله تعالىٰ، أديانهم قائمة علىٰ التوحيد كما في قوله تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾، وقوله سبحانه: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

- ويخبرنا القرآن كذلك بأن الأنبياء وإن كانوا يشتركون في التوحيد وأصل الرسالة إلا أن شرائعهم تختلف ما بين نبي وآخر كما قال ﷻ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

- ويخبرنا القرآن أيضًا بأنّ النبي ﷺ بُعث مصدقًا للأنبياء في أصل هذه الرسالة، وأن شريعته جاءت ناسخة لكل الشرائع السابقة ومهيمنة عليها، كما قال ﷻ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾.

أصناف المكذبين بالرسل والنبوّات:

المكذبون بالرسل أصناف:

- فمنهم الملحدون، الذين لا يعترفون بوجود الله أصلا. وهؤلاء لا يكون النقاش معهم في تفاصيل النبوة بل في إثبات وجود الله ﷻ، لأنهم ينكرونها من ناحية الإمكان، فإذا أثبتنا أن الله موجود لم يعد هناك وجه للقول بأن النبوة مستحيلة، لأن

الذي خلق الكون غير عاجز -سبحانه- عن إرسال رسول! والذي خلق الكون وجعل له قوانين غير عاجز -جل شأنه- عن تأييد أنبيائه بمعجزات تخالف بعض ما اعتاده الناس من قوانين كونية.

- ومنهم الربوبيون الذين يؤمنون بوجود الخالق وينكرون كل الأديان. فهؤلاء يكون النقاش معهم من مبدأ أهمية النبوة وضرورتها وتوافقها مع الحكمة الإلهية، ثم بإثبات نبوة النبي ﷺ.

- ومنهم أصحاب الأديان الذين يؤمنون بأنبياء ويكفرون بآخرين، كاليهود والنصارىٰ. فهؤلاء يكون النقاش معهم بإثبات نبوة محمد ﷺ، وأنه لا فرق بين الرسل من جهة أصول رسالاتهم، وأن رسالة النبي ﷺ مصدقة لرسالات الأنبياء وليست مكذبة لها.

دلائل نبوة النبي ﷺ:

إنّ الدلائل والبراهين التي تثبت لنا أن محمدا عليه الصلاة والسلام نبي مرسل من عند الله تعالىٰ كثيرة جدًا، وقد أوصلها بعض العلماء إلىٰ ألف دليل، وكتب العلماء في ذلك وألفوا، وجمعوا وحققوا، فمنهم الذي ركّز علىٰ دلائل العقل، ومنهم من اهتم بدلائل الخبر، ومنهم من اعتنىٰ بجانب المعجزات الحسية.

ومِن أجمع الكتب المتقدمة: كتاب دلائل النبوة للبيهقي، ومن أفضل الكتب المعاصرة: كتاب براهين النبوة لسامي عامري، وكتاب النبأ العظيم لمحمد دراز، ومن أراد شيئا مسهلا لطيفا

فيمكنه مشاهدة سلسلة حلقات للدكتور منقذ السقار بعنوان: براهين النبوة.

وسأعرض شيئا من دلائل النبوة علىٰ طريقة جدول بعنوان (التنوع والتكامل في دلائل النبوة) ولكن قبل ذلك، سأشير إلىٰ قضية مهمة جدا، ألا وهي أن النبوة خبر من الأخبار، أي أن النبي يُخبر بأنه نزل عليه الوحي، والمُخبِر إما أن يكون صادقا أو كاذبا، وتمييز الصادق من الكاذب في الأمور الكبيرة -مثل النبوة- سهل جدا، لأن الذي يدّعي أنه نبي ولا يكون كذلك فإنه يكون من أشد المخلوقات كذبا، وتمييز هذا النوع من البشر في غاية اليُسر، حتىٰ الجاهل يمكنه معرفة كذب من يدّعي النبوة وهو غير صادق فيها، ولذلك قال الإمام ابن أبي العز الحنفي:

«النبوة إنما يدّعيها أصدق الصادقين، أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا علىٰ أجهل الجاهلين، بل قرائن أحوالهما تُعرِب عنهما، وتُعَرِّف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوىٰ النبوة، فكيف بدعوىٰ النبوة؟»[1] وهو كلام في غاية النفاسة، وقد ذكره قبله الإمام ابن تيمية وذلك في شرحه للعقيدة الأصبهانية، وسأذكر الكلام بنصّه مع اختصار يسير، قال رحمه الله تعالىٰ:

«ومعلوم أن مدعي الرسالة إما أن يكون من أفضل الخلق

(١) شرح الطحاوية، طبعة وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد (ص١٠٩)

وأكملهم، وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم، فكيف يشتبه أفضلُ الخلق وأكملُهم بأنقص الخلقِ وأرذلِهم؟!

وما من أحد ادعىٰ النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنىٰ تمييز. وما من أحد ادعىٰ النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمن له أدنىٰ تمييز، فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور ولا بد أن يفعل أمورًا؛ والكذاب يظهر في نفس ما يأمر به، وما يخبر عنه، وما يفعله ما يَبِينُ به كذبه من وجوه كثيرة، والصادق يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه ويفعله = ما يظهر به صدقه من وجوه كثيرة.

والناس يميزون بين الصادق والكاذب بأنواع من الأدلة حتىٰ في المدّعين للصناعات والمقالات كالفلاحة والنساجة والكتابة، وعلم النحو والطب والفقه وغير ذلك، فما من أحد يدعي العلم بصناعة أو مقالة إلا والتفريق في ذلك بين الصادق والكاذب له وجوه كثيرة، وكذلك مَن أظهر قصدا وعملا كمن يظهر الديانة والأمانة والنصيحة والمحبة وأمثال ذلك من الأخلاق فإنه لا بد أن يتبين صدقه وكذبه من وجوه متعددة.

والنبوة مشتملة علىٰ علوم وأعمال لا بد أن يتصف الرسول بها، وهي أشرف العلوم، وأشرف الأعمال، فكيف يشتبه الصادق فيها بالكاذب؟ ولا يتبين صدق الصادق وكذب الكاذب من وجوه

كثيرة؟ لا سيما والعالم لا يخلو من آثار نبي من لدن آدم إلىٰ زماننا، وقد عُلم جنس ما جاءت به الأنبياء والمرسلون وما كانوا يدعون إليه ويأمرون به، ولم تزل آثار المرسلين في الأرض ولم يزل عند الناس من آثار الرسل ما يعرفون به جنس ما جاءت به الرسل ويفرقون به بين الرسل وغير الرسل.

فلو قدر أن رجلا جاء في زمان إمكان بعث الرسل وأمر بالشرك وعبادة الأوثان وإباحة الفواحش والظلم والكذب، ولم يأمر بعبادة الله ولا بالإيمان باليوم الآخر هل كان مثل هذا يحتاج أن يطالب بمعجزة أو يشك في كذبه أنه نبي؟» **إلىٰ آخر كلامه** رَحِمَهُ ٱللَّهُ[1]

(١) شرح الأصبهانية، مكتبة دار المنهاج، باختصار من (٥٣٩-٥٤٤)

تنوع وتكامل دلائل النبوة

نوع الدليل	أمثلة من آحاد الدليل
الكمال الأخلاقي (الصدق والأمانة)	- شهادة قومه له بالأمانة والصدق: ١- موقف وضعه الحجر الأسود في الكعبة زمن الجاهلية. ٢- عند البعثة حين قال: لو أخبرتكم أن جيشًا سيخرج من وراء الجبل هل تصدقوني فقالوا: نعم. ٣- موقف أبي سفيان حين سأله هرقل وهو رئيس الروم: «هل كنتم تتهمونه بالكذب»؟ فأجابه أبو سفيان: لا. فقال له هرقل: «وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا؛ فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَىٰ النَّاسِ، وَيَكْذِبَ عَلَىٰ اللَّهِ»[1]

(١) صحيح البخاري (٧).

	- تسليم أمانات المشركين قبل الهجرة. - تبليغ الآيات التي فيها عتاب له، مثل ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ [عَبَسَ: ١] ومثل: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزَاب: ٣٧]. ومثل ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التَّوبَة: ٤٣]. - حادثة الإفك: حيث تربص شهرًا كان شديدًا عليه جدًا لم يقل فيه شيئا من عنده، حتىٰ نزل الوحي بعد ذلك بدروس الموقف وعبره. - حين كسفتِ الشمْس في اليوم الذي مات فيه إبراهيم ابن النبيّ ﷺ قال النّاس: (كسفتِ الشّمسُ لموت إبراهيم) فقام فيهم خطيبًا مُصحِّحًا هذا الاعتقاد الخاطئ، معظّمًا ربّه وخالقه ومولاه قائلًا: «**إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ**»[1]. - **والأمثلة كثيرة بالغة الكثرة لا يمكن سردها كلها ولا نصفها هنا، وهذا فقط في نوع واحد من الأدلة.**
الآيات الحسية	- أعظمها: عجز العرب عن معارضة الكتاب الذي جاء به.

(١) صحيح البخاري (١٠٤٣)، صحيح مسلم (٩٠٢).

	- نبع الماء من بين أصابعه. - الشفاء بريقه وبمسحة يده. - تكثير الطعام بين يديه. - انشقاق القمر.
الأخبار الغيبية	- الإخبار بدخول مكة ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ - الإخبار بمقتل قادة مؤتة. (البخاري ١٢٤٦) - الإخبار بمقتل عمار رضي الله عنه علىٰ يد مسلمين بغوا عليه: «**تقتل عمارًا الفئة الباغية**» البخاري (٤٤٧) - الإخبار بخروج الخوارج: «**تمرق مارقة من الدين علىٰ حين فرقة من المسلمين**» مسلم (١٠٦٤) - الإخبار بأن الحسن بن علي سيصلح بين فئتين عظيمتين من المسلمين، وقد حصل ذلك عام الجماعة. (البخاري ٢٧٠٤) - الإخبار بفتح فارس «**لئن طالت بك حياة لَتُفتحنّ كنوز كسرىٰ**» (البخاري ٣٥٩٥) - حديث أن من علامات الساعة: «**أَنْ تَرَىٰ الحُفاةَ العُراةَ العالَةَ رِعاءَ الشَّاءِ يَتَطاوَلُونَ في البُنْيانِ**» (صحيح مسلم ٨) - إلىٰ آخره من النصوص الغيبية الكثيرة جدا.

القرآن الكريم	ووجوه دلالة القرآن علىٰ صدق النبي ﷺ كثيرة جدا سبق الحديث عن شيء منها في مبحث الإيمان بالكتب، وهو موضوع: **الإعجاز القرآني** ولكن القرآن يدل بأكثر من ذلك، ففيه **الأخبار الغيبية** أيضًا -غير أخبار السنة التي سبق ذكرها، مثل: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ﴾ وهذا من أعظم الأخبار الغيبية لمن تأمله. وفيه **العلوم العالية** التي لم يعرفها العرب ولا يستطيعونها مع أن النبي ﷺ نشأ بينهم. وغير ذلك
أخبار الكتب السابقة	- (جاء في إنجيل يوحنا/الإصحاح السادس عشر، أن عيسىٰ عليه السلام قال: «وأما الآن فأنا ماض إلىٰ الذي أرسلني، وليس أحد منكم يسألني: أين تمضي؟ لكن لأني قلت لكم هذا قد ملأ الحزن قلوبكم. لكني أقول لكم الحق: إنه خير لكم أن أنطلق؛ لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم «المُعَزِّي»، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم» . . «إن لي أمورًا كثيرة أيضًا لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متىٰ جاء ذاك، روح الحق، فهو يرشدكم إلىٰ جميع الحق؛ لأنه لا يتكلم من

نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به، ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني؛ لأنه يأخذ مما لي ويخبركم». انتهىٰ. وهذه بشارة بمن يأتي بعده صفته أنه لا يتكلم من نفسه بل يتكلم بما يسمع، ويخبر بأمور آتية، وهذه صفة تُذكرنا بقول الله عن محمد صلّىٰ الله عليه وسلّم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤] وقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨] هذا غير ما ذكره عدد من الباحثين ومنهم د: منقذ السقار ـ وهو متخصص في هذا الباب ـ في معنىٰ كلمة (المعزي) وأنها ترجمة غير دقيقة للنص الأصلي باليونانية (باراقليط) وأن المعنىٰ الأدق للكلمة اليونانية هو: الذي له الحَمد الكثير، فيكون الاسم الدال علىٰ ذلك (أحمد) أو (محمد) أو (الحامد) وليس المُعزّي[١] فيكون ذلك ـ لو صحّ ـ من جملة تحريفاتهم)[٢].	

(١) ذكره دكتور منقذ السقار في مقطع مرئي له في اليوتيوب بعنوان: بشارة النبي محمد في التوراة والانجيل علىٰ هذا الرابط وغيره:

https//www.youtube.com/watch?t=347&v=KSdXkfGHRAI

(٢) كتاب سابغات، أحمد السيد (١١٣-١١٤)

- وهناك نصوص أخرىٰ لمن أراد التوسع يراجع كتاب: هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟ وكتاب: تباشير الإنجيل والتوراة بالإسلام ورسوله ﷺ، لنصر الله أبو طالب. وكتاب: يجدونه مكتوبًا عندهم. لفيصل علي الكاملي.	

وهذا غيض من فيض، ونقطة من بحر، فالعاقل حين يرىٰ هذه الدلائل، ويجعل بينها تكاملًا، فإنه لا يسعه إلا أن يقول: أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله!

الركن الخامس من أركان الإيمان
الإيمان باليوم الآخر

لحظة الموت والانتقال إلىٰ الدار الآخرة:

يبدأ اليوم الآخر بالنسبة للإنسان عند لحظة موته؛ حيث ينتقل من عالم الدنيا إلىٰ عالمٍ آخَر، عالمٍ محجوبة حقائقه عن حواسنا، وإن كنا نعلمها بالخبر الصادق عن النبي ﷺ.

ولئن كان يوم القيامة يُسمىٰ في القرآن الكريم (الساعة) وذلك في آيات كثيرة، فإن النبي ﷺ قد جعل لحظة موت الإنسان ساعةً بالنسبة إليه، كما في صحيح البخاري عن عائشة قالت: كان رجال من الأعراب جفاة يأتون النبي ﷺ فيسألونه: متىٰ الساعة؟ فكان ينظر إلىٰ أصغرهم فيقول: «**إن يعش هذا، لا يدركه الهرم حتىٰ تقوم عليكم ساعتكم**». قال هشام: يعني موتهم[1]

---

(١) صحيح البخاري (٦٥١١)

قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ معلقًا علىٰ الحديث: (وذلك أنّ من مات فقد دخل في حكم القيامة، فعالم البرزخ قريب من عالم يوم القيامة، وفيه من الدنيا أيضًا، ولكن هو أشبه بالآخرة، ثم إذا تناهت المدة المضروبة للدنيا، أمر الله بقيام الساعة، فيُجْمَعُ الأولون والآخرون لميقات يوم معلوم)[1]

وعند تلك اللحظة الرهيبة العظيمة تأتي البشرىٰ للمؤمن برضوان الله وجنته، فيقال له: لا تخف مما أمامك، ولا تحزن علىٰ ما وراءك. وهي اللحظة التي يكون فيها أهله حوله يبكون ويتألمون لفراقه، وهم لا يعلمون أنه فرح سعيد مبتهج مطمئن، مشتاق للقاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فعن عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه**». قالت عائشة، أو بعض أزواجه: إنا لنكره الموت! قال: «**ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بُشِّر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه، فأحب لقاء الله، وأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضر بُشر بعذاب الله وعقوبته، فليس شيء أكره إليه مما أمامه كره لقاء الله، وكره الله لقاءه**»[2]. فهذا من أعظم المبشرات وقد أخبر الله تعالىٰ عن ذلك في سورة فصلت، بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فُصِّلَت: ٣٠]

(١) النهاية في الفتن والملاحم (١/ ١٩٧).

(٢) صحيح البخاري (٦٥٠٧)

وكما أن هذه اللحظة هي البشرىٰ الكبرىٰ بالنسبة للمؤمن -ولا تنافسها بشرىٰ إلا حين يستلم كتابه بيمينه يوم القيامة-، فإنها -في نفس الوقت- لحظة عصيبة مؤلمة شديدة علىٰ المنافق والكافر والفاجر، فهو في تلك الحال التي يحتاج الإنسان فيها إلىٰ أدنىٰ بصيص ضوء أو أمل، تأتيه النذارة بأن الله ساخط عليه وأن ما أمامه إنما هو العذاب! كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام: ٩٣] فالملائكة تقول لهم عند الموت: اليوم تجزون العذاب! يا إلهي! بل إن الأمر أشد من ذلك، فمعنىٰ قول الله: ﴿بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: بالضرب، والعذاب، كما قال المفسرون وكما شهد له القرآن في مواضع أخرىٰ. فيضرب المجرم عند الموت، ويُبشر بالعذاب، مع حزنه علىٰ ما فاته من الدنيا، وقلقه أصلا من الموت . . أي لحظة تلك! أي شدة وأي صعوبة وأي بؤس وأي شقاء؟! ولذلك فإن العُبّاد والصالحين كانوا يعملون لتلك اللحظة وما بعدها كثيرًا، ويقومون لأجلها بالليل يصلّون قانتين لله تعالىٰ، كما قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ وكما قال سبحانه -كذلك-: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾

اللهم ارحمنا يا رب وأحسن ختامنا يا حليم يا كريم.

ولـدتـك أمـك يـا ابـن آدم بـاكـيـًا
والـنـاس حـولـك يـضـحـكـون سـرورا
فـاعـمـل لـنـفـسـك أن تـكـون إذا بـكـوا
فـي يـوم مـوتـك ضـاحـكًـا مـسـرورا

وهذه بداية رحلة الروح، في عالم البرزخ..

القبر: فتنته ونعيمه وعذابه:

من عقيدة أهل السنة والجماعة أن الإنسان بعد موته وقبل بعثه -أي في مرحلة البرزخ حين يكون في قبره- فإنه لا يعيش مرحلة فراغ، بل إنه يمر برحلة طويلة للروح إما نعيم وإما شقاء، وأنه أول ما يوضع في قبره يتعرض للسؤال والامتحان من جهة ملائكة مخصصة لذلك، وأنه سيجيب بحسب سيره في الحياة الدنيا، وأنه بناء علىٰ هذا الجواب سيعيش بقية حياته البرزخية في القبر.

وقد يظن الإنسان أن الأمر سهل لأنه يعرف الأسئلة مسبقا ويحفظ الجواب، ولكن الحقيقة أن الإجابة هناك لن تكون بالحفظ، بل بما كان يعتقده ويؤمن به.

وفي تلك اللحظة حين يُسأل الإنسان، يكون الأهل والأصحاب والأقارب والأحباب قد نفضوا أيديهم من تراب القبر، وتحلقوا حوله يبكون ويدعون، هذا في العالم الظاهر فوق

الأرض، أما في العالم الباطن تحت الأرض فهنالك أمور وأحوال أخرىٰ، هم رأوا جثمانًا وترابًا ولحدًا وكفنًا، رأوا أن ذلك نهاية المشهد، ولكن في الحقيقة إنما هو البداية.

بداية رحلة أبدية خالدة، أولها سؤال وفتنة وامتحان، ثم إما نور وفسحة ونافذة إلىٰ الجنة، وإما ظلام وضيق ونافذة إلىٰ النيران، فالمرء -بعد سؤال الملكين- يظل إلىٰ يوم البعث إما منعما وإما معذبا، نسأل الله العافية.

وعند ذلك، وفي تلك البقعة الضيقة المظلمة تحت التراب، يتمنىٰ الإنسان أن يجد بصيص أمل لأي شيء، يتمنىٰ أن يرىٰ أي أثر لعمل صالح، يتمنىٰ أن يكون قد بقي له شيء يدر عليه الحسنات، فإن كان من أصحاب الصدقات الجارية -كحفر الآبار، أو بناء المساجد، أو إنشاء المدارس التي تربي الناس علىٰ الصلاح والأخلاق-، أو كان ممن ترك علمًا نافعًا -كالكتب أو الدروس المسجلة أو الدعاة الذين علمهم ورباهم[1]-، أو ترك ولدًا صالحًا يدعو له = فيا لسعده وهنائه، وهذا هو الذي خطط لمستقبله جيدًا.

ومن هنا ندرك جانبًا من جوانب أهمية: (الولد الصالح) إذْ في ذكره لفتة مهمة في الرد علىٰ الداعين إلىٰ ترك الزواج ونبذه، حيث لا يرون في الزواج سوىٰ مسؤوليات وأعباء، ويدعون في

(١) لعلهم يدخلون في العلم النافع المورّث أو في الصدقة الجارية.

الوقت ذاته إلىٰ إقامة العلاقات خارج إطار الزواج، لأنها تحقق اللذة بدون مسؤوليات. وهذه نظرة تختلف مع المبدأ الإسلامي في الزواج تماما، الذي ينظر إلىٰ الأسرة علىٰ أنها لبنة أساسية في المجتمع وأن صلاحها فيه صلاح للمجتمع، وتختلف مع نظرته للأبناء علىٰ أنهم مشروع عظيم يستمر إلىٰ ما بعد موت الإنسان.

نسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا من هذه الأعمال الثلاثة أوفر الحظ والنصيب . . آمين.

من أدلة الكتاب والسنة علىٰ فتنة القبر ونعيمه وعذابه وما ينفعه:

وبعد العرض السابق لمرحلة القبر وفتنته سأسرد مجموعة من الأدلة علىٰ ما ذكرتُ، لأن هناك مِن أهل البدع من تعوّد الجحود حتىٰ جحدوا مثل هذه المعاني التي جاءت بها الشريعة.

١- قال الله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ وقد فسّر النبي ﷺ هذه الآية وبيّنها، كما أخرج الإمام البخاري ومسلم في صحيحيهما[١] عن البراء بن عازب عن النبي ﷺ قال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ قال: «نزلت في عذاب القبر، فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، ونبيي محمد ﷺ، فذلك قوله ﷻ ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾».

---

(١) اللفظ لمسلم، والحديث في البخاري برقم (١٣٦٩) وفي مسلم برقم (٢٨٧١)

٢- أخرج الإمام البخاري في صحيحه[١] عن أنس بن مالك ﵁، أنه حدثهم أن رسول الله ﷺ قال: «**إن العبد إذا وضع في قبره وتولىٰ عنه أصحابه، وإنه ليسمع قرع نعالهم، أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل -لمحمد ﷺ-؟ فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله. فيقال له: انظر إلىٰ مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة. فيراهما جميعا**». قال قتادة: وذكر لنا أنه يفسح له في قبره، ثم رجع إلىٰ حديث أنس قال: «**وأما المنافق والكافر فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أدري، كنت أقول ما يقول الناس. فيقال: لا دريت ولا تليت. ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين**».

٣- أخرج الإمام مسلم في صحيحه[٢] عن أبي هريرة ﵁ قال: إذا خرجت روح المؤمن؛ تلقاها ملكان يُصعدانها. قال حماد: فذكر من طيب ريحها، وذكر المسك. قال: ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلىٰ الله عليك، وعلىٰ جسد كنت تعمرينه. فينطلق به إلىٰ ربه ﷿، ثم يقول: انطلقوا به إلىٰ آخر الأجل. قال: وإن الكافر إذا خرجت روحه. قال حماد: وذكر من نتنها، وذكر لعنا، ويقول أهل السماء: روح خبيثة جاءت من قبل الأرض. قال: فيقال: انطلقوا به إلىٰ آخر

---

(١) (١٣٧٤)

(٢) (٢٨٧٢)

الأجل. قال أبو هريرة: فرد رسول الله ﷺ ريطة كانت عليه علىٰ أنفه. هكذا.

٤- أخرج الإمام مسلم في صحيحه[١] عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة؛ إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**».

النفخ في الصور:

في لحظة لا يعلم زمانها إلا الله ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ بعد رحلة طويلة في البرزخ: يُنفخ في الصور بصوت عال مهيب صاخّ صارخ، فيبعث الله معه الناس من قبورهم، ويحشر الأجساد، ويحييها بعد الموت كما يحيي الأرض بعد موتها: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فُصِّلَت: ٣٩] وكما خلق الإنسان أول مرة من العدم فإنه يعيد إحياءه وخلقه مرة أخرىٰ: ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يسٓ: ٧٨-٧٩]

وهذه النفخة التي يبعث الله بها الناس ليست الأولىٰ، بل الثانية، وأما الأولىٰ فهي نفخة يُصعَق بها من في السماوات ومن في الأرض، فمن بقي من الناس حيًا وقت نهاية الدنيا

---

(١) (١٦٣١)

فسيموت بالصعقة الأولىٰ، ثم يمكثون ماشاء الله ثم تأتي النفخة الثانية وهي التي سماها الله تعالىٰ (الصاخّة) أي أنها من قوتها تصمّ الآذان أو تكاد.

قال الله ﷻ: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾.

البعث والحشر:

يخرج الناس من قبورهم ينظرون: ما هذا؟ من بعثنا من مرقدنا؟ ما الذي جرىٰ؟ يا إلهي! إنه لحقّ! إنه لصدق! هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون! ثم يلتفتون إلىٰ أنفسهم فإذا هم كما خلقهم الله أول مرة: حفاة عراة، غرلًا -غير مختونين- كما ثبت في الصحيح عن عائشة، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا**» قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعا ينظر بعضهم إلىٰ بعض، قال ﷺ: «**يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلىٰ بعض**»[1]

وكل شيء حينذاك مهول مخوف، فالأرض غير الأرض، والنجوم متناثرة، والسماء منشقة، والبحار مشتعلة، والأرض تُزلزل، والحيوانات والسباع والأسود تُحشَر، والجبال الشم الرواسي تُفتّت: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥-١٠٧]

(١) أخرجه مسلم (٢٨٥٩)

فيكون الناس كالفراش المبثوث، ويفرّ الأخ من أخيه وأمه وأبيه، لأن لكلٍّ منهم يومئذ شأن يغنيه.

ثم يسمعون الداعي الذي يقودهم إلىٰ ساحة الحشر، فيسيرون خلفه كأنهم جراد منتشر ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ﴾ أي مسرعين إليه ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ﴾ فيُجمع الناس ليوم عظيم ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] يبرزون للواحد القهار ويقومون له؛ في ساحة لا جبال فيها ولا حُفر، لا ارتفاع فيها ولا انخفاض، ولا مساكن فيها ولا أعلام، بل هي كما روىٰ سهل بن سعد رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «**يُحشر الناس يوم القيامة علىٰ أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها علم لأحد**»[1] ومعنىٰ ليس فيها علم لأحد أي هي مستوية ليس فيها سكن ولا بناء ولا أثر لبشر.

فيُجمَع الناس في ساحة الحشر، كل الناس من لدن آدم إلىٰ نهاية الدنيا، فيقومون طويلا في موقف صعب، حيث تدنو الشمس، ويشتد الحر، فيكثر العرق الذي يرشح من الجسم، كما روىٰ ابن عمر عن النبي ﷺ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] قال: «**يقوم أحدهم في رشحه إلىٰ أنصاف أذنيه**»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٢١) ومسلم (٢٧٩٠)

(٢) مسلم (٢٨٦٢)

الآمنون من الفزع الأكبر:

في ذلك المقام الذي يجتمع فيه الخوف والفزع والحر وطول المقام والعطش، تفيء ثلة من الناس إلىٰ ظلٍّ يُظلهم الله به، ظليل، بعيد عن هذه الشدة والهول، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابا في الله؛ اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفىٰ حتىٰ لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**»[1]. وفي البخاري[2] عن النبي ﷺ «**من أنظر معسرًا أظله الله في ظله**».

وقد ذكر الله في كتابه العزيز أن من عباده من سيُجنّب الفزع في ذلك اليوم، كما قال سبحانه: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ﴾ وقال ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وقال ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فاللهم اجعلنا منهم يا أرحم الراحمين.

الحوض:

في مقام الشدة ذاك، هناك موعد شريف للمؤمنين من أعظم المواعيد وأجلّها، ألا وهو: موعد لقاء النبي ﷺ علىٰ الحوض،

---

(١) صحيح البخاري (٦٦٠)

(٢) (٣٠٠٦)

موعد اللقاء بأشرف الخلق عند مورد الماء الصافي العذب في يوم العطش الأكبر، كم هو جميل ذلك اللقاء، وكم تتقطع النفوس شوقًا إليه، وهو ﷺ كان يبشر أصحابه بذيّاك اللقاء، ويمنيهم به في بعض حديثه حين يذكر شيئا من الشدة التي ستلاقيهم، كما في قوله للأنصار: «**اصبروا حتىٰ تلقوني علىٰ الحوض**»[1] وقوله حين زار شهداء أحد «**إن موعدكم الحوض**»[2] فيا لله كيف سيكون ذاك اللقاء؟!وأما صفات الحوض، فقد أخبر بها النبي ﷺ وبشّر، فمن ذلك ما يلي:

- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**حوضي مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء من شرب منها، فلا يظمأ أبدا**». (البخاري ٦٥٧٩)

- وعن ثوبان أن نبي الله ﷺ سئل عن شراب الحوض، فقال: «**أشد بياضا من اللبن، وأحلىٰ من العسل، يغتّ**[3] **فيه ميزابان، يمدانه من الجنة؛ أحدهما من ذهب، والآخر من ورق**» (مسلم ٢٣١٠)

- وعن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال عن الحوض «**من ورده فشرب منه لم يظمأ بعدها أبدا**» (مسلم ٢٢٩٩)

---

(١) البخاري (٣٧٩٢)

(٢) البخاري (٤٠٤٢)

(٣) أي: يصبّ

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أحاديث الحوض صحيحة، والإيمان به فرض، والتصديق به من الإيمان، وهو علىٰ ظاهره عند أهل السنة والجماعة، لا يُتأول، ولا يختلف فيه، قال القاضي: وحديثه متواتر النقل، رواه خلائق من الصحابة»[1].

طلب الشفاعة لبدء الحساب:

نعود إلىٰ المشهد العام العسر الصعب الشديد المرهق، فإن الناس يطول المقام بهم في ساحة الحشر ويبلغ الكرب بهم مبلغًا لا يطيقونه ولا يحتملونه، فيلتفتون باحثين عمن يمكن أن يشفع لهم إلىٰ ربهم ليبدأ الحساب، ويفصل لهم في أمرهم، فيعلمون حينذاك أن أسيادهم وملوكهم وكبراءهم في الدنيا لا حظّ لهم في الآخرة، وأن الذين لهم الحظ الأوفر هم الأنبياء، فيتوجهون إليهم طالبين إياهم أن يشفعوا إلىٰ ربهم لا في دخول الجنة، وإنما فقط لينتهي وقوفهم الطويل ذاك، وقد بيّن النبي ﷺ ما الذي سيجري حينها علىٰ وجه التفصيل، كما أخرج الإمام البخاري في صحيحه[2] عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟**

(١) النووي، شرح صحيح مسلم (١٥/ ٥٣) إحياء التراث

(٢) (٤٧١٢)

يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد، يُسمعهم الداعي، وينفذهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلىٰ ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم. فيأتون آدم عليه السلام، فيقولون له: أنت أبو البشر؛ خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ ألا ترىٰ إلىٰ ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة، فعصيته، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ نوح. فيأتون نوحا، فيقولون: يا نوح، إنك أنت أول الرسل إلىٰ أهل الأرض، وقد سماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها علىٰ قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ إبراهيم. فيأتون إبراهيم، فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبي الله، وخليله من أهل الأرض، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ موسىٰ. فيأتون موسىٰ، فيقولون: يا موسىٰ، أنت رسول الله،

فضّلك الله برسالته، وبكلامه علىٰ الناس، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإني قد قتلت نفسا لم أومر بقتلها، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ عيسىٰ ابن مريم فيأتون عيسىٰ، فيقولون: يا عيسىٰ، أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلىٰ مريم، وروح منه، وكلمت الناس في المهد صبيا، اشفع لنا، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ فيقول عيسىٰ: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله -ولم يذكر ذنبا- نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلىٰ غيري، اذهبوا إلىٰ محمد ﷺ. فيأتون محمدا ﷺ، فيقولون: يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، اشفع لنا إلىٰ ربك، ألا ترىٰ إلىٰ ما نحن فيه؟ فأنطلق، فآتي تحت العرش، فأقع ساجدا لربي ﷻ، ثم يفتح الله علي من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتحه علىٰ أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع. فأرفع رأسي، فأقول: أمتي يا رب، أمتي يا رب. فيقال: يا محمد، أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة. وهم شركاء الناس فيما سوىٰ ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيده، إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة، وحمير، أو كما بين مكة، وبصرىٰ»

بدء الحساب والقضاء بين الناس وعرض الأعمال والموازين والصحف:

يوم الحساب يوم طويل مليء بالأحداث والأهوال، فيه السوء علىٰ الكافرين، والخير للمؤمنين، فيه البكاء والعويل، والتغابن والثبور، وفيه كذلك: الفرح والسرور، والسعادة والحبور.

- يجيء الله تبارك وتعالىٰ بعد شفاعة النبي ﷺ ليقضي بين العباد: ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفَجْرِ: ٢١-٢٣] وقال سبحانه ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ﴾.

- يُؤتىٰ بجهنم تجرّها الملائكة فيراها الخلق ﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ﴾ وقال النبي ﷺ: «**يؤتىٰ بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها**»[1]

- يحاسب الله البشر فردًا فردًا، كما قال سبحانه ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرىٰ إلا ما قدم من عمله، وينظر أشأم منه،**

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٢)

فلا يرىٰ إلا ما قدم، وينظر بين يديه، فلا يرىٰ إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة»[(١)].

- والحساب أنواع: فمنه الحساب اليسير -وهو العرض- ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ وهناك حساب عسير، تُعرض فيه الأعمال وتُناقش، كما روت عائشة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك**». فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «**إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب**»[(٢)].

- ويكذب بعض الناس في النقاش مع ربهم ظانين أنهم سينجون منه! فقد أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبِي هُرَيْرة[(٣)] رضي الله عنه في سياق وصف النَّبيّ ﷺ للنقاش بين الله وعبده، قال: «**فيلقىٰ العبد فيقول: أي فُل**[(٤)]**، ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلىٰ. قال: فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقىٰ الثاني، فيقول: أي فُل،**

---

(١) البخاري (٧٥١٢)

(٢) البخاري (٦٥٣٧)

(٣) (٢٩٦٨)

(٤) يعني: يا فلان

ألم أكرمك، وأسودك، وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع؟ فيقول: بلىٰ، أي رب. فيقول: أفظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول: فإني أنساك كما نسيتني. ثم يلقىٰ الثالث، فيقول له مثل ذلك، فيقول: يا رب، آمنت بك وبكتابك وبرسلك، وصليت وصمت وتصدقت. ويثني بخير ما استطاع، فيقول: هاهنا إذن. قال: ثم يقال له: الآن نبعث شاهدنا عليك. ويتفكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم علىٰ فيه، ويقال لفخذه ولحمه وعظامه: انطقي. فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله، وذلك ليعذر من نفسه، وذلك المنافق، وذلك الذي يسخط الله عليه»

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ وفي موضع ثالث: ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾

- يوضع الميزان فتوزن أعمال الإنسان؛ حسناته وسيئاته، كما قال سبحانه: ﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وقال سبحانه ﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾

- يُفاجأ الإنسان بأن كل شيء من عمله مكتوب، ألفاظه وأعماله ومعتقداته، خطواته ونظراته، سعيه وكدّه، هزله وجدّه، كل شيء يجده أمامه، كما قال الله سبحانه ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ وقال سبحانه ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾

- ثم يُعطىٰ الإنسان كتابه، فإن أخذه بيمينه فيا لهنائه وسعده وفلاحه وفوزه وسعادته، ينطلق فرِحًا، مناديًا مسرورًا: ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ وإن أعطيه بشماله فقد خسر كل شيء، وانتهىٰ بالنسبة إليه كل شيء، كما قال ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ﴾

- ثم يؤخذ بأهل النار إلىٰ النار نسأل الله العافية.

الصراط:

بعد ساحة الحشر، وفي طريق التوجه إلىٰ الجنة، وبعد أن يُلقىٰ بأهل النار الذين هم أهلها في النار، يجتاز البقية من فوق الصراط الذي سيكون آخر تصفية وغربلة، وهو جسر مضروب علىٰ جهنم، يمر الناس فوقه كُلٌّ بحسب عمله وإيمانه، حتىٰ

يسقط بعضهم ممن لم يُسعفه عمله للإجازة والعبور. فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال: «**يُضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان، هل رأيتم شوك السعدان؟**» قالوا: نعم. قال: «**فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم، فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل ثم ينجو**».

وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه قال: «**وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا، فيمر أولكم كالبرق. قال: قلت: بأبي أنت وأمي، أي شيء كمر البرق؟ قال: ألم تروا إلىٰ البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرجال، تجري بهم أعمالهم ونبيكم قائم علىٰ الصراط، يقول: رب، سلم سلم، حتىٰ تعجز أعمال العباد حتىٰ يجيء الرجل، فلا يستطيع السير إلا زحفا. قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار، والذي نفس أبي هريرة بيده، إن قعر جهنم لسبعون خريفا**»[١]

---

(١) مسلم (١٩٥)

الشفاعة في الخروج من النار:

لا يستطيع أحد أن يشفع عند الله كشفاعة أتباع الملوك عند الملوك لمجرد وجود جاه عندهم يشفعون! لا، وإنما الشفاعة يوم القيامة تكون أولًا بإذن الله ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، ثم تكون فيمن ارتضىٰ الله -وهم أهل التوحيد- ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وأما غير الموحّد فلا تنفعه الشفاعة، ولا يأذن الله في الشفاعة لهم.

ومن عقيدة أهل السنة والجماعة أن الله سيُخرِج من أهل النار أقوامًا ممن في قلوبهم خير من أهل التوحيد، ممن استحقوا النار بذنوبهم، ممن لم تكن لهم حسنات كافية في الدنيا فيُطهّرون في جهنم، ثم يُخرَجون منها، ويدخلون الجنة، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ بقوله: «**حتىٰ إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئا ممن أراد الله أن يرحمه ممن يشهد أن لا إله إلا الله، فيعرفونهم في النار بأثر السجود، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله علىٰ النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء الحياة، فينبتون تحته كما تنبت الحبة في حميل السيل، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقىٰ رجل مقبل بوجهه علىٰ النار، هو آخر أهل النار دخولا الجنة، فيقول: أي رب، اصرف وجهي عن النار؛ فإنه قد قشبني ريحها، وأحرقني ذكاؤها.**

فيدعو الله بما شاء أن يدعوه، ثم يقول الله: هل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسألني غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسألك غيره. ويعطي ربه من عهود ومواثيق ما شاء، فيصرف الله وجهه عن النار، فإذا أقبل علىٰ الجنة ورآها، سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، قدمني إلىٰ باب الجنة. فيقول الله له: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك ألا تسألني غير الذي أعطيت أبدا، ويلك يا ابن آدم ما أغدرك؟ فيقول: أي رب. ويدعو الله حتىٰ يقول: هل عسيت إن أعطيت ذلك أن تسأل غيره؟ فيقول: لا وعزتك، لا أسألك غيره. ويعطي ما شاء من عهود ومواثيق، فيقدمه إلىٰ باب الجنة، فإذا قام إلىٰ باب الجنة، انفهقت له الجنة، فرأىٰ ما فيها من الحبرة والسرور، فيسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم يقول: أي رب، أدخلني الجنة. فيقول الله: ألست قد أعطيت عهودك ومواثيقك ألا تسأل غير ما أعطيت؟ فيقول: ويلك يا ابن آدم، ما أغدرك. فيقول: أي رب، لا أكونن أشقىٰ خلقك. فلا يزال يدعو حتىٰ يضحك الله منه، فإذا ضحك منه قال له: ادخل الجنة. فإذا دخلها، قال الله له: تمنه. فسأل ربه وتمنىٰ، حتىٰ إن الله ليذكره، يقول كذا وكذا حتىٰ انقطعت به الأماني. قال الله: ذلك لك ومثله معه». أخرجه الإمامان البخاري ومسلم في صحيحيهما[1]

---

(١) البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢)

وهذه الشفاعة ليست خاصة بالنبي ﷺ، بل هي لكثير من المؤمنين، وأما الخاصة به -وهي المقام المحمود الذي وُعِدَه- فهي للأمم كلها في الفصل والقضاء والحساب بعد طول الموقف والهول كما مرّ معنا. وهنا يأتي شيء من أثر الصحبة الصالحة في الدنيا، فإن أناسًا من المؤمنين سيشفعون لمعارفهم وأصدقائهم من أهل التوحيد -بإذن الله تعالىٰ- كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ في صحيحي البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله تعالىٰ عنه حين ذكر نجاة من نجا من المؤمنين علىٰ الصراط، قال: «**وإذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم يقولون: ربنا إخواننا، كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا. فيقول الله تعالىٰ: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه. ويحرم الله صورهم علىٰ النار، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلىٰ قدمه، وإلىٰ أنصاف ساقيه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون فيقول: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه. فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون فيقول: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه. فيخرجون من عرفوا -قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرؤوا:** ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾- فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي. فيقبض قبضة من النار، فيخرج أقواما قد امتحشوا، فيلقون في نهر بأفواه الجنة، يقال له: ماء الحياة. فينبتون في حافتيه كما تنبت

الحبة في حميل السيل، قد رأيتموها إلىٰ جانب الصخرة إلىٰ جانب الشجرة، فما كان إلىٰ الشمس منها كان أخضر، وما كان منها إلىٰ الظل كان أبيض، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ، فيجعل في رقابهم الخواتيم، فيدخلون الجنة، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه. فيقال لهم: لكم ما رأيتم، ومثله معه»

دخول الجنة:

وعد الله عباده المؤمنين بالجنة، والإيمان بها إيمان بالغيب، كما قال الله سبحانه: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾ ثم أعدّها وهيأها وزينها وعرّفها لهم، حتىٰ أصبحت علىٰ صورة لا يمكن لبشر أن يصفها، ففيها من النعيم ما لم يخطر -حتىٰ في الخيال- علىٰ قلب إنسان، كما ثبت في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله: أعددتُ لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر. فاقرءوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾**»[1] وقد ذكر الله في كتابه كثيرا من الآيات في وصف الجنة، وكذلك النبي ﷺ في عشرات أو مئات الأحاديث، وكَتَب العلماء في وصف الجنة كتبًا خاصة، منها: كتاب حادي الأرواح إلىٰ بلاد الأفراح للإمام

(١) صحيح البخاري (٣٢٤٤)

ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ، ولأن المقام هنا مختصر ولا يمكنني استيفاء صفات الجنة، ولا كثيرا منها، فسأكتفي بثلاثة أحاديث صحيحة فقط، لعلها تقرّب شيئا من الصورة، نسأل الله تعالىٰ أن يرزقنا الجنة ويجعلنا من أهلها.

١- عن أنس عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «**آخر من يدخل الجنة رجل، فهو يمشي مرة، ويكبو مرة، وتسفعه النار مرة، فإذا ما جاوزها التفت إليها، فقال: تبارك الذي نجاني منك، لقد أعطاني الله شيئا ما أعطاه أحدا من الأولين والآخرين، فترفع له شجرة، فيقول: أي رب، أدنني من هذه الشجرة، فلأستظل بظلها، وأشرب من مائها. فيقول الله عَزَّ وَجَلَّ: يا ابن آدم، لعلي إن أعطيتكها سألتني غيرها، فيقول: لا يا رب، ويعاهده أن لا يسأله غيرها، وربه يعذره، لأنه يرىٰ ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة هي أحسن من الأولىٰ، فيقول: أي رب، أدنني من هذه لأشرب من مائها، وأستظل بظلها لا أسألك غيرها، فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني أن لا تسألني غيرها، فيقول: لعلي إن أدنيتك منها تسألني غيرها، فيعاهده ألّا يسأله غيرها، وربه يعذره، لأنه يرىٰ ما لا صبر له عليه، فيدنيه منها، فيستظل بظلها، ويشرب من مائها، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هي أحسن من الأوليين. فيقول: أي رب، أدنني من هذه؛ لأستظل بظلها،**

وأشرب من مائها، لا أسألك غيرها. فيقول: يا ابن آدم، ألم تعاهدني ألا تسألني غيرها؟ قال: بلىٰ يا رب، هذه لا أسألك غيرها، وربه يعذره؛ لأنه يرىٰ ما لا صبر له عليها، فيدنيه منها، فإذا أدناه منها، فيسمع أصوات أهل الجنة. فيقول: أي رب، أدخلنيها. فيقول: يا ابن آدم، ما يصريني منك، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها؟ قال: يا رب، أتستهزئ مني، وأنت رب العالمين؟» فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني مم أضحك؟ فقالوا: مم تضحك؟ قال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ. فقالوا: مم تضحك يا رسول الله؟ قال: **«من ضحك رب العالمين حين قال: أتستهزئ مني، وأنت رب العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكني علىٰ ما أشاء قادر»**(١). وفي رواية في الصحيح لحديث ابن مسعود من طريق عبيدة عنه: قال رسول الله ﷺ: **«إني لأعرف آخر أهل النار خروجا من النار رجل يخرج منها زحفا، فيقال له: انطلق، فادخل الجنة. قال: فيذهب، فيدخل الجنة، فيجد الناس قد أخذوا المنازل. فيقال له: أتذكر الزمان الذي كنت فيه؟ فيقول: نعم. فيقال له: تمن، فيتمنىٰ. فيقال له: لك الذي تمنيت، وعشرة أضعاف الدنيا. قال: فيقول: أتسخر بي، وأنت الملك؟»** قال: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتىٰ بدت نواجذه.

---

(١) صحيح مسلم (١٨٧)

٢- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتىٰ بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط**»[1].

٣- عن صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالىٰ: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: «فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلىٰ ربهم** عز وجل». وفي رواية: ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[2].

﴿وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ﴾، ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ٢٥ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ٢٦ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ٢٧﴾.

---

(١) صحيح مسلم (٢٨٠٧)

(٢) صحيح مسلم (١٨١)

جهنم:

للطغاة يوم ينالون فيه العقوبة، وللعاصين مكان يذوقون فيه جزاءهم، وهو مكان مهول مخيف، عذابه لا يُطاق، وجحيمه لا يُحتَمَل: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٢٥ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾

وهي ليست نارًا عادية، بل حرارتها مضاعفة، وقعرها بعيد، وظلمتها شديدة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من سبعين جزءا من نار جهنم**». قيل: يا رسول الله، والله إنْ كانت لكافية! قال: «**فضلت عليهن بتسعة وستين جزءا، كلهن مثل حرها**»[1]

وفيها أصناف من النكال والعذاب، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ۝١٢ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ولذلك سماها الله بأسماء متعددة، كل اسم منها يدل علىٰ معنىٰ ووصف وأثر لها، فمن أسمائها في القرآن: سقر، ولظىٰ، والسعير، والحطمة، والجحيم، وجهنم، والنار.

ويجعل الله أجسام الكفار فيها أكبر من المعتاد لكي يذوقوا العذاب، بالإضافة إلىٰ أنه يبدّل جلودهم كلما احترقت، كما قال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

---

(١) صحيح البخاري (٢٨٤٣)

ويتمنىٰ من فيها الموت بكل وسيلة لكي ينجو من العذاب، ولكن هيهات فقد فات الأوان، ولا مجيب لهم ولا مغيث، ولا يكلمهم الله ﷻ، فنسأل الله العافية.

هذا؛ وإن الموفق حقًا من رزقه الله الاهتمام بمعرفة ما يُسبب دخول النار من الظلم والشرك والغش وترك الصلاة ومن القول علىٰ الله بلا علم ومن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من المنكرات، ثم رزقه العمل علىٰ اجتنابها.

الركن السادس من أركان الإيمان
الإيمان بالقدر خيره وشره

لا يُقدّر الله شرًا محضًا:

أخبر النبي ﷺ في حديث جبريل أن من أركان الإيمان: «**أن تؤمن بالقدر خيره وشره**» والسؤال هنا: هل يكون من أقدار الله ما هو شر؟

الجواب: أنه قد يكون شرا بالنسبة لمن وقع عليه القدر لا أنه شرّ خالص من كل الجهات، فلِلّه تعالىٰ الحكمة البالغة، وهو يعلم ما لا نعلم، فقد يُقدّر شيئا ظاهره الشر ولكن ينبني عليه خير كثير.

مثال: حين يفقد الإنسان حبيبا أو قريبًا، فإنه بتقديره قد يتساءل لماذا؟ وقد يعترض، وقد يرىٰ ذلك شرا خالصا، بينما ذلك في تقدير الله له معانٍ كثيرة: منها الابتلاء، ومنها تكفير

السيئات، ومنها رفع الدرجات، ومنها العقوبة، ومنها القدر المحض والأجل، ومنها ما لا نعلم. فلا يصح للإنسان -المحدود العلم- أن يعترض علىٰ الله الذي له العلم الكامل التام الشامل سبحانه.

مثال آخر: يحرص أحدنا علىٰ عمل معين، أو زواج، أو حتىٰ لعبة بالنسبة للأطفال، ونبذل كل شيء لنظفر بما نريد، ثم قد نكتشف بعد مدة أن هذا الخيار الذي تعبنا لأجله ليس هو الخير، فكيف بعلم الله الذي يعلم المستقبل قبل وقوعه؟!

ماذا يعني الإيمان بالقدر؟ ومتىٰ نكون مؤمنين بالقدر؟

أول شيء يجب علينا تجاه الإيمان بالقدر أن نؤمن بأنه لا يحدث شيء في هذه الدنيا إلا وقد قدره الله تعالىٰ وكتبه قبل خلق السماوات والأرض، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه علىٰ الماء**»(١)

ثم بعد ذلك هناك مقامان تجاه ما يؤلمنا من الأقدار، أحدهما واجب، فمن لم يحققه فإن ذلك دليل علىٰ ضعف إيمانه بالقضاء والقدر ويكون مستحقًا للعقوبة، والثاني اختلف العلماء في وجوبه وإن لم يختلفوا في أنه مقام عظيم محبوب عند الله تعالىٰ.

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢٦٥٣)

• فالأول الصبر، وفيه معنىٰ المنع والحبس، أي أن تمنع وتحبس نفسك عن الجزع والتسخط، وعن شق الجيوب والألبسة، وعن لطم الخدود ونفش الشعور وحلق الرؤوس، ونحو ذلك. فيكتم الصابر ألمه، ولا يقول إلا ما يرضي ربه.

• والثاني الرضا. وهو مبني علىٰ تفويض الأمر لله، والتسليم له بأن ما يُقدّره فهو خير، فتجد الراضي منشرح الصدر، مطمئنا مسلّمًا، وهو صابر في نفس الوقت، أي أن مقام الرضا يمر بالصبر ويزيد عليه، فكل راضٍ صابر وليس العكس.

وفي كلا الحالتين لا يكون دمع العين وحزن القلب معارضا لهما، فهما من الرحمة التي جعلها الله في قلوب عباده.

ما ثمرات الإيمان بالقدر؟

١- الصبر علىٰ المصائب والكوارث:

لأنه يؤمن أن المصيبة مقدّرة، وانه لا يستطيع مغالبة القدر، وأن الله حكيم فيما يقضي، ففيم السخط؟! ولأنه يؤمن بأنه إن صبر فإن له أجرًا عظيما، فيحتمل الألم لأجل الأجر.

وأما من لا يؤمن بقضاء ولا قدر ولا أجر ولا ثواب ولا عقاب فسيجد صعوبة كبيرة في الصبر.

٢- السكينة والطمأنينة والرضا:

وهذه الطمأنينة هي التي يبحث عنها أكثر أهل الأرض، ولكنها لا تتحقق إلا للمؤمن، المؤمن الذي يعلم أن ما أصابه فهو

خير له، فهو لا يكتفي بكفّ نفسه عن الجزع، وإنما كذلك يرضىٰ ويسلّم، فينزل الله عليه السكينة والطمأنينة.

وتأمل معي هذا الحديث العظيم الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[1] عن صهيب، قال: قال رسول الله ﷺ: «**عجبا لأمر المؤمن، إنّ أمْره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له**».

٣- الأجر والثواب:

المؤمن يفهم ويوقن بأن نعيم الجنة سيُنسيه كل بؤس وشقاء مر به، كما في صحيح مسلم[2] عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يؤتىٰ بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيرا قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب. ويؤتىٰ بأشد الناس بؤسا في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤسا قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط**».

كما أن المؤمن يعلم أنه إذا ظُلم فلم يستطع أن يأخذ حقه في الدنيا فإنه سيأخذه في الآخرة، وهذا كله يبعث علىٰ الطمأنينة واليقين والسكون.

---

(١) (٢٩٩٩)

(٢) (٢٨٠٧)

٤- إحسان التصرف واتخاذ القرار وعدم الطيش وقت المصيبة:

إذا تحققت الآثار السابقة من اليقين والرضا والطمأنينة فإن المسلم ولو حَزِن، أو تألم لمصيبة فإنه لا يفقد صوابه، ولا يطيش أو يرتكب حماقات بسبب المصيبة، فكثير من الناس إذا خسروا شيئا دنيويا مهما ولم يكن لديهم إيمان واحتساب، فإنهم يرتكبون ما لا تُحمد عاقبته إما من الضرب أو التكسير أو الإتلاف أو حتىٰ القتل أو الانتحار.

والمؤمن مُسلّم مطمئن محتسب.

ما أنواع كتابة الأقدار وقسمها؟

كتب الله ﷻ الأقدار كلها، من قبل أن تُخلق السماوات والأرض -كما مرّ معنا-، غير أن هناك أنواعا متعددة من الكتابة والتقدير:

١- الكتابة الشاملة لمقادير الخلائق، وهي السابقة لخلق السماوات والأرض، وهي في اللوح المحفوظ، كما قال الله تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ وقال المصطفىٰ عليه الصلاة والسلام «**كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه علىٰ الماء**»[1].

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه (٢٦٥٣)

٢- قَسْمُ الأقدار المتعلقة بكل سنة وعام وفَرْقُها، كما قال تعالىٰ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدُّخَانِ: ٤] أي في ليلة القدر، قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير الآية (أي: في ليلة القدر يفصل من اللوح المحفوظ إلىٰ الكَتَبة أمر السنة، وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلىٰ آخرها. وهكذا روي عن ابن عمر، وأبي مالك، ومجاهد، والضحاك، وغير واحد من السلف)[1]

٣- كتابة أقدار الجنين في بطن أمه، كما في صحيح البخاري[2] عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ قال: «**إن الله** عَزَّ وَجَلَّ **وكل بالرحم ملكا يقول: يا رب نطفة، يا رب علقة، يا رب مضغة، فإذا أراد أن يقضي خلقه، قال: أذكر أم أنثىٰ؟ شقي أم سعيد؟ فما الرزق والأجل؟ فيكتب في بطن أمه**».

هل يصح لأحد أن يحتج علىٰ ذنوبه بالإيمان والقدر؟

لا يصح لأحد أن يبرر انحرافه ومعصيته بالقدر، لأن الإنسان له إرادة حقيقية يستطيع الاختيار بها كما قال الله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾

---

(١) تفسير ابن كثير للآية ٤ من سورة الدخان

(٢) (٣١٨)

وهي الإرادة التي لأجلها خلق الله الجنة والنار، وأرسل الرسل بالحجج والبينات؛ وإلا فإذا لم تكن عند الإنسان إرادة فما الفائدة من إرسال الرسل وإقامة الحجة؟

ونحن جميعا نشعر بقدرتنا علىٰ الاختيار في أمور حياتنا، ولا نرضىٰ ولا نقبل باحتجاج أحد علينا بالقَدَر، فلو أن أحدًا سرق منا شيئا ثم قال: آسف! هذا قضاء وقدر! لما قبلنا، ولأمسكنا به وعاقبناه أو قُدناه إلىٰ الشرطة.

وأما حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احتج آدم وموسىٰ؛ فقال موسىٰ: يا آدم، أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة. فقال له آدم: أنت موسىٰ، اصطفاك الله بكلامه، وخط لك بيده، أتلومني علىٰ أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فقال النبي ﷺ: «**فحج آدم موسىٰ، فحج آدم موسىٰ**»[1]. أي غلب آدم موسىٰ في حجته، فهذا احتجاج بالقَدَر علىٰ المصيبة وليس علىٰ المعصية، والمصيبة هنا هي: الخروج من الجنة، وهي ليست من إرادة آدم، وإنما بقدر الله، وأما أكْلُه من الشجرة فهو بإرادته فلذلك قال ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾.

ما الأمور المعينة علىٰ الصبر والرضا بالقدر؟

١- تذكر العاقبة، وما أعده الله ﷻ للصابرين، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٩) ومسلم(٢٦٥٢) واللفظ له

وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ فالصابرون يرحمهم الله ويصلي عليهم -أي يذكرهم بالثناء في الملأ الأعلىٰ-.

٢- تذكر محبة الله للصابرين، وأن المصيبة قد تكون هي السبب الموجب لمحبة الله للعبد إذا أتبعها بالصبر والإيمان، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

٣- اليقين بأن الله ﷻ عليم حكيم، فإذا قضىٰ شيئًا فهو خير من جهة تقديره ﷻ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

٤- الفهم التام بأن الجزع لا يفيد، وأن السخط وبال علىٰ الإنسان، يضيّق الصدر، ويكدّر الخاطر، ويزيد الذنوب، ولا يرد شيئا، فمن يسخط علىٰ قضاء الله فإنه لن يغير في الابتلاء شيئا، بل يضر نفسه.

القسم الثالث

ما يضاد الإيمان ويُناقضه

الأبواب المضادة للإيمان

من المهم أن يعرف الإنسان الأبواب التي تضاد إيمانه؛ ليستفيد أمرين:

الأول: ليحذرها ويجتنبها، فإن من لا يعرف الشر يقع فيه.

الثاني: ليزداد بصيرة في معالم الإيمان وحدوده؛ وبضدها تتميز الأشياء.

وهذا من أهم ما تميز به أصحاب رسول الله ﷺ أنهم عرفوا الشرك وحدوده والإيمان وحدوده، فالتزموا بالإيمان علىٰ بصيرة، واجتنبوا ما يضاده عن علم وفهم وإرادة.

ولذلك كان حذيفة رضي الله عنه يسأل رسول الله ﷺ عن الشر ليحذره ويجتنبه ويعرف علاماته ويميزها، كما ثبت في صحيح البخاري[1].

---

(١) (٣٦٠٦)

وتأمل معي هذا الكلام المهم من الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ لتدرك أهمية معرفة حدود الشر، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: (من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنه شر، فإما أن يقع فيه، وإما أن لا ينكره كما أنكره الذي عرفه .. ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند مَن عَلِمَهُ، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم .. ولهذا كان الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُم أعظم إيمانا وجهادا ممن بعدهم، لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر، لما علموه من حسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقبح حال الكفر والمعاصي ... ولهذا يقال: والضد يُظهر حسنه الضد). انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللهُ[1]، ولا شك أنه لا يقصد الحث علىٰ الوقوع في الشر بغرض التعرّف عليه، وإنما غاية ما يريد قوله ابن تيمية في هذا النص هو ضرورة معرفة الشر وحدوده ليتميز الحق وحدوده، وليكون صاحب الحق علىٰ بصيرة، وليكون له من بغض الكفر والشر بقدر معرفته بقبحهما.

الكفر والشرك والنفاق:

حين نمرّ علىٰ ذِكر الشرك والكفر والنفاق -ونحن نتلو كتاب الله أو نقرأ سنة نبيه ﷺ-، فإننا نتخيل أشياء في غاية البُعد عنّا، ولا نظن أنها يمكن أن تهددنا في يومٍ من الأيام، وربما

---

(١) الفتاوىٰ (١٠/ ٣٠١)

يكون ذلك لجهلنا بكثير من التفاصيل المتعلقة بهذه الأسماء الشرعية.

وفي الحقيقة فإن كلًّا من الكفر والشرك والنفاق، فيه درجات، فهناك الكفر الأكبر والكفر الأصغر، والشرك الأكبر والأصغر، والنفاق الأصغر والأكبر.

والأصغر من هذه الأسماء ليس خاصا بالكفار، بل يمكن أن يقع فيه المسلمون، وهو يقود إلىٰ الأكبر، فالرياء مثلًا شرك أصغر وكثيرا ما يقع فيه أناس من المسلمين، وإخلاف الوعد والكذب في الحديث وخيانة الأمانة من صفات المنافقين، وهي نفاق أصغر وكثيرا ما يقع فيها أناس من المسلمين، ولذلك فإن الصحابة لصدق إيمانهم وتقواهم كانوا يخافون النفاق علىٰ أنفسهم مع كل ما لديهم من صلاح وعمل، وتجد أحدنا اليوم آمنًا وكأنه قد أخذ مفاتيح الجنة بيديه.

أخرج البخاري في صحيحه عن ابن أبي مليكة قال: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه ما منهم أحد يقول: إنه علىٰ إيمان جبريل وميكائيل[1] وقال الإمام ابن القيم رحمه الله (تالله لقد قطّع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين، لعلمهم بدقه وجله وتفاصيله وجمله، ساءت ظنونهم بنفوسهم حتىٰ خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين، قال عمر بن

---

(١) قبل حديث رقم (٤٨) في البخاري

الخطاب لحذيفة ﵄: يا حذيفة، نشدتك بالله، هل سماني لك رسول الله ﷺ منهم؟ قال: لا، ولا أزكي بعدك أحدا، . . وذكر عن الحسن البصري: ما أمنه إلا منافق، وما خافه إلا مؤمن، ولقد ذكر عن بعض الصحابة أنه كان يقول في دعائه: اللهم إني أعوذ بك من خشوع النفاق، قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: أن يرىٰ البدن خاشعا والقلب ليس بخاشع.

تالله لقد مُلئت قلوب القوم إيمانا ويقينا، وخوفهم من النفاق شديد، وهمهم لذلك ثقيل، وسواهم كثير منهم لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، وهم يدّعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل)[1].

فلا بد من معرفة حدود هذه الأسماء والأوصاف، وإدراك تفاصيلها وأنواعها، لنحذر منها ونجتنبها. وقد وجدت كلامًا سهلًا ميسرًا للإمام ابن القيّم في أقسام الكفر والشرك والنفاق وذلك في كتابه الجميل: مدارج السالكين، فسأعتمده أصلًا وأنقله باختصار، ثم أزيد بعض التوضيحات، والنقولات كذلك.

قال رحمه الله تعالىٰ: (الكفر نوعان: كفر أكبر، وكفر أصغر. فالكفر الأكبر هو الموجب للخلود في النار، **والأصغر** موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود، كما في قوله قوله ﷺ في الحديث: «**اثنتان في أمتي، هما بهم كفر: الطعن في النسب،**

(١) مدارج السالكين (١/ ٦٢٣-٦٢٤) ط: طيبة

والنياحة» وقوله: «**لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض**»

وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع: كفر تكذيب، وكفر استكبار وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك، وكفر نفاق.

فأما كفر التكذيب فهو اعتقاد كذب الرسل، وهذا القسم قليل في الكفار، فإن الله تعالىٰ أيد رسله، وأعطاهم من البراهين والآيات علىٰ صدقهم ما أقام به الحجة، وأزال به المعذرة، قال الله تعالىٰ عن فرعون وقومه: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقال لرسوله ﷺ: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]، وإن سمي هذا كفر تكذيب أيضا فصحيح، إذ هو تكذيب باللسان.

وأما كفر الإباء والاستكبار فنحو كفر إبليس، فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومِن هذا: كُفْرُ مَن عَرَف صدق الرسول، وأنه جاء بالحق من عند الله، ولم ينقد له إباء واستكبارا، وهو الغالب علىٰ كفر أعداء الرسل، كما حكىٰ الله تعالىٰ عن فرعون وقومه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧] وقول الأمم لرسلهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [إبراهيم: ١٠] وقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ [الشمس: ١١] وهو كفر اليهود كما قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾ [البقرة: ٨٩] وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]

وأما كفر الإعراض فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول، لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلىٰ ما جاء به البتة.

وأما كفر الشك فإنه لا يجزم بصدقه ولا يكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول ﷺ جملة، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها، ونظره فيها فإنه لا يبقىٰ معه شك، لأنها مستلزمة للصدق، ولا سيما بمجموعها، فإن دلالتها علىٰ الصدق كدلالة الشمس علىٰ النهار.

وأما كفر النفاق فهو أن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه علىٰ التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر، وسيأتي بيان أقسامه إن شاء الله تعالىٰ.

وأما الشرك -ولا يزال الكلام لابن القيم رحمه الله- فهو نوعان: أكبر وأصغر.

فالأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه، وهو أن يتخذ من دون الله ندا، يحبه كما يحب الله، وهو الشرك الذي تضمّن تسوية آلهة المشركين برب العالمين، ولهذا قالوا لآلهتهم في النـــار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذۡ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨] مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء، وربه ومليكه، وأن آلهتهم لا تخلق ولا ترزق، ولا تحيي ولا تميت، وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة كما هو حال

أكثر مشركي العالم، والذي في قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم أن آلهتهم تشفع لهم عند الله، وهذا عين الشرك، وقد أنكر الله عليهم ذلك في كتابه وأبطله، وأخبر أن الشفاعة كلها له، وأنه لا يشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه، ورضي قوله وعمله، وهم أهل التوحيد، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء، فإنه سبحانه يأذن لمن شاء في الشفاعة لهم، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه، فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له صاحب التوحيد الذي لم يتخذ شفيعا من دون الله ربه ومولاه.

وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» وقول الرجل للرجل: ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وإنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل علىٰ الله وعليك، ولولا أنت لم يكن كذا وكذا، وقد يكون هذا شركا أكبر، بحسب قائله ومقصده، وصح عن النبي ﷺ أنه قال لرجل قال له: ما شاء الله وما شئت: «**أجعلتني لله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده**» وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ.

والشرك أنواع كثيرة، لا يحصيها إلا الله، ولو ذهبنا نذكر أنواعه لاتسع الكلام أعظم اتساع، ولعل الله أن يساعد بوضع كتاب فيه، وفي أقسامه، وأسبابه ومباديه، ومضرته، وما يندفع به.

وأما النفاق: فالداء العضال الباطن، الذي يكون الرجل ممتلئا منه، وهو لا يشعر، فإنه أمر خفي علىٰ الناس، وكثيرا ما يخفىٰ علىٰ من تلبس به، فيزعم أنه مصلح وهو مفسد.

وهو نوعان: أكبر، وأصغر: فالأكبر يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل، وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به، لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله علىٰ بشر جعله رسولا للناس، يهديهم بإذنه، وينذرهم بأسه، ويخوفهم عقابه). انتهىٰ كلامه رَحِمَهُ اللَّهُ[1]. وهو كلام مهم مع أنني اختصرت منه كثيرًا، فمن أراد الاستزادة فليراجع مدارج السالكين في الموضع المشار إليه في الحاشية.

ونلاحظ في كلامه أنه لم يذكر النفاق الأصغر بصورة مستقلة، فلا بد من ذكره والإشارة إليه، ولكن قبل ذلك، أود أن نزداد تعرفًا علىٰ بعض صور النفاق الأكبر، لأنه في غاية الخطورة، وكان موجودًا علىٰ عهد النبي ﷺ، ولم ينته إلىٰ اليوم، وسأذكر فيه نصّين من كلام شيخِ ابن القيم: أبي العبّاس ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم أنتقل إلىٰ بيان النفاق الأصغر.

النص الأول: قال ابن تيمية: (فمن النفاق ما هو أكبر، ويكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، كنفاق عبد الله بن

(١) مدارج السالكين (١/ ٥٨٧-٦٠٧) باختصار كثير.

أُبيّ وغيره، بأن يظهر تكذيب الرسول أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو عدم اعتقاد وجوب اتباعه، أو المسرّة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه، ونحو ذلك: مما لا يكون صاحبه إلا عدوًا لله ورسوله، وهذا القدر كان موجودًا في زمن رسول الله ﷺ، ومازال بعده، بل هو أكثر منه علىٰ عهده)[1].

وتأمل قوله: المسرّة بانخفاض دين الرسول، أو الاستياء بظهور دينه!

النص الثاني: قال ابن تيمية أيضًا: (فأما النفاق المحض الذي لا ريب في كفر صاحبه، فإنه لا يرىٰ وجوب تصديق الرسول ﷺ فيما أخبر به، ولا وجوب طاعته فيما أمر به، وإن اعتقد مع ذلك أن الرسول عظيم القدر- علمًا وعملًا- وأنه يجوز تصديقه وطاعته لكنه يقول: إنه لا يضر اختلاف الملل إذا كان المعبود واحدًا، ويرىٰ أنه تحصيل النجاة والسعادة بمتابعة الرسول وبغير متابعته، إما بطريق الفلسفة والصبو، أو بطريق التهود والتنصر). انتهىٰ[2].

وأما النفاق الأصغر فهو راجع إلىٰ اختلاف الظاهر والباطن في بعض الأعمال كصدق الحديث والوفاء بالوعد وتأدية الأمانة،

(١) مجموع الفتاوىٰ (٢٨/ ٤٣٤)

(٢) الإيمان الأوسط (١٨٠(

كما ثبت عنِ النبيِّ صلَّىٰ الله عليه وسلَّم أنَّه قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان**»[1] وثبت عنه ﷺ أنه قال -كذلك-: «**أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتىٰ يدعها: إذا ائتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[2]

والمؤمن لا يمكن أن يداوم علىٰ كذب الحديث وخيانة الأمانة والغدر بالعهد، فلا يتهاون الإنسان مع نفسه في الوقوع في أفراد هذه الأعمال؛ كيلا ينتقل إلىٰ المداومة عليها والجمع بينها فيكون منافقا خالصا كما قال النبي ﷺ.

الرياء والعمل لغير الله:

إن من علامات ضعف التعلق بالله، وقوة التعلق بغيره، أن يعمل المسلم أعمالا هي في أصلها من العبادات، ولكنه يقوم بها لا ليرضي من أمر بها، وإنما ليكتسب مكانة عند الناس وسمعة، وهذا في غاية الخطورة.

والناس -علىٰ الحقيقة- لا ينفعون ولا يضرون؛ فلم التصنّع لهم؟

---

(١) البخاري (٣٣) ومسلم (٥٩).

(٢) البخاري (٣٤) ومسلم (٥٨)

والله هو الذي يملك قلوب الناس، وهو قادر علىٰ تحبيبك إليهم كلما أخلصت له أكثر، وقادر علىٰ تبغيضك إليهم كلما صرفت نيتك عنه، فهو الغني الحميد سبحانه.

والعمل لغير الله له صورتان:

الأولىٰ: أن يقصد غير الله بعمله ابتداءً وانتهاءً، فهذا رياء محض. وهو من صفات المنافقين الذين إذا قاموا إلىٰ الصلاة قاموا كسالىٰ يراؤون الناس، فهم لا يصلون لله وإنما للناس، ولا شك أن هذا من الشرك، فعن أبي هريرة ﵁ عن النبي ﷺ قال: «**قال الله تبارك وتعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**».

الثانية: أن يقصد الله ﷻ بعمله ولكن بالإشراك مع نية أخرىٰ. فإن شاركه الرّياء من أصل العمل، يعني من أوله وابتدائه، كأن يكون قصده: وجهَ الله وثناءَ الناس، فهذا العمل باطل. قال ابن رجب: (لا نعرف عن السلف في هذا خلافًا)[١] يعني في بطلان هذا العمل. وهو رياء وشرك.

وأما إذا كان قد أنشأ العمل لوجه الله، ثم طرأت عليه نيّة الرّياء بعد النيّة الصالحة فدافعها ولم يجعلها تستقرّ، فهذه الحال لا تضرّ المؤمن ولا تُبطل العمل بغير خلاف كما نقل ابن رجب -أيضًا-[٢]، ولا تؤثر علىٰ صاحبها من جهة الثواب والعقاب.

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٨٢)

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٨٤)

هذا وإن من أعظم ما يعين الإنسان علىٰ الإخلاص: معرفة الله حق المعرفة، والطمع في ثوابه، والخوف من عقابه، وعدم تعظيم الناس فوق مرتبهم -فإن هذا أصل عظيم من أصول المعاصي والذنوب-.

الخاتمة

إلىٰ الجيل الصاعد:

لنتذكر أن عقيدة المسلم ليست نصوصًا تُحفَظ، ولا أقوالًا يُجادَل بها، وإنما هي إيمان وخشوع وإخبات، وعمل وفاعلية وحياة، ويقين وطمأنينة ورضا.

وإلىٰ طلاب العلم، والقائمين علىٰ العمل الدعوي والتربوي، والمشتغلين بالدرس العقدي:

إن علينا أن نغرس أصول العقيدة والثوابت الكبرىٰ في عقول الجيل، وأن نعتني باللغة المقنِعة المبرهَنة، وأن نحرص علىٰ تحقيق الأثر العقدي المرجو من علم العقيدة، ألا وهو الإيمان بالغيب والتسليم لله ورسوله والانقياد لهما، وتحقيق العبودية لله توكلًا وإنابة واعتصاما.

كما أن علينا أن ندرك طبيعة التحديات العقدية المعاصرة التي اقتلعت الجذور الإيمانية لدىٰ كثير من أبناء الجيل الصاعد.

وهي تختلف كثيرا عن التحديات المرتبطة بالتراث العقدي الإسلامي، فإشكالات اليوم قد أدّت إلىٰ تفكيك الإنسان، وقطعت علاقته بالغيب، وفتّت أصوله وقيمه ومرجعياته الأخلاقية الكبرىٰ، أو دعت في أقل أحوالها إلىٰ أن تكون علاقة التدين البشري بالله شخصية في الإطار الفردي للإنسان مع عزله عن أي تأثير عام فضلًا عن أن تكون له الهيمنة والمرجعية الحقيقية.

ولذلك فإن فهم المشتغلين بالدرس العقدي للاتجاهات العلمانية والليبرالية والإلحاد والمادية والعلموية والإنسانوية ونحوها لا يقل أهمية عن فهمهم لأقوال المعتزلة والمرجئة والقدرية والخوارج، بل الحاجة إلىٰ فهم أقوال تلك الاتجاهات أمَسّ، والضرورة إلىٰ نقضها أشد . . والله المستعان.

هذا؛ وأسأل المولىٰ القدير، العزيز الغفور، أن يبارك ويتقبل، وأن يغفر الزلل، ويكفر السيئات، والحمد لله رب العالمين، وصلّ اللهم علىٰ النبي الكريم محمد.

المؤلف

ليلة السابع من رمضان عام ١٤٤١ هـ

الموافق ٣٠/ ٤/ ٢٠٢٠

ALSAIYD998@GMAIL.COM